علي ومعاوية

في الرواية العربية المبكرة

دراسة في نشأة وتمو الكتابة التاريخية الاسلامية
حتى نهاية القرن التاسع الميلادي

تأليف

ايلرلنغ ليروك

بيترسن

Erling ladewig petersen

ترجمة وتقديم وتعليق

عبد الجبار ناجي

قم - ٢٠٠٨ ـ ١٤٢٩ - ١٣٨٧

www.ketab.ir

عبدالجبار ناجي
علي ومعاوية في الرواية العربيه المبكرة/ ايارلنغ ليروك بيترسن؛ Erling ladewig petersen ترجمة عبدالجبار ناجي
قم: نشر المؤرخ، ٢٠٠٨م- ١٤٢٩
الطبعة الاولى
تاريخ الاسلام- علم التاريخ عند المسلمين - علي و معاوية - نقد الرواية التاريخة الاسلامية المتقدمة
التسلسل الدولي: ٨- ٥١٨٨- ٩٠- ٩٦٤- ٩٧٨

علي ومعاوية في الرواية العربيه المبكرة
المؤلف: ايارلنغ ليروك بيترسن
ترجمة الاستاذ الدكتور عبدالجبار ناجي
الطبعة الاولي
نشر مؤرخ
التسلسل الدولي: ٨- ٥١٨٨- ٩٠- ٩٦٤- ٩٧٨
العدد ١٠٠٠
مطبعة الاعتماد
ايران، قم

www.ketab.ir

فهرست المحتويات

مقدمة المترجم ٧
تقديم ٣٧
مقدمة المؤلف ٣٩
القسم الأول ٦١
نشأة الرواية ٦١
خلفية عامة ٦٣
نشأة الرواية ٧١
المراحل الثانوية للرواية في العهد الاموي ١١٣
القسم الثاني ١٣٥
القرن الأول من الفترة العباسية ١٣٥
مقدمة ١٣٧
الرواية السنية (٧٥٠ ـ ٨٠٠) ١٤٣
الرواية العباسية (٨٠٠م – ٨٥٠م) ١٦١
الرواية الشيعية (٧٥٠م – ٨٥٠م) ١٨٩
الرواية المتبقية المؤيدة للأمويين (٧٥٠م – ٨٥٠م) ٢٠٤
اعادة مختصرة للنقاط الاساسية ٢١٥
القسم الثالث ٢٣٧
محاولات ومساع للتسوية ٢٣٧
تمهيد ٢٣٩

www.ketab.ir

البلاذري(المتوفى ٨٩٢م) ٢٤٣
الطبري (المتوفى ٩٢٣م) ٢٦٥
الدينوري (المتوفى حوالي ٨٩٥م) ٢٨٢
اليعقوبي (٨٩٦ م) ٣٠٠
خلاصة واستنتاج ٣١١
مسرد بالترجمة الانجليزية لبعض المصطلحات ٣٢٩
في التاريخ الاسلامي ٣٢٩
ثبت المراجع ٣٣١

www.ketab.ir

مقدمة المترجم

يوحي عنوان المستشرق الدانماركي بيترسن الذي تمت ترجمته بعنوان (علي ومعاوية) لأول وهلة بأنه نموذج آخر من نماذج الدراسات التي تقع ضمن دائرة الدراسات الضدية أو الدراسات الافضلية أو دراسات المفاضلة بين متصارعين ومتناقضين، يبديان ويظهران كذلك في عقلية الباحث سواء كان مؤرخاً أم باحثاً في ميادين معرفية أخرى. فالواقع ان مفهومية الضدية والمفاضلة قد حظيت باهتمام في ذاكرتنا التاريخية إذ إنها فكرة قد أعتقد بها مثلاً الأديب الذائع الصيت الجاحظ ففصَّل أصنافاً من أبناء الجنس البشري على أساس عرقي بل تجاوز ذلك إلى التوصيف الجنسي، السود والبيض، الجواري والغلمان، وقد أخذ بهذا المبدأ مؤلفو الانساب إذ شخصوا الضدية بين العرب والعجم وبين قبيلة عربية وأخرى، واستشهادنا هنا بأبي عبيدة معمر بن مثنى مثلاً، ثم اعتقد بهذه المفاضلة اهالي مدن وأمصار فالتقطها المؤلفون لتأليف مؤلفات عن أفضلية البصرة على الكوفة أو العكس. إذن فإن مثل هذه الدراسات المقارنة بهدف اظهار فضل هذا على ذاك لم تقتصر على الدراسات التاريخية بل تعدتها إلى مقارنات الأفضلية والضدية بين اشخاص ومذاهب وامارات وتكوينات سياسية وما إلى ذلك. فعالم مثل أبي الخَطاب ابن دحية الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م يؤلف كتاباً بعنوان (اعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين)،

www.ketab.ir

كذلك فإن العالم المشهور تقي الدين المقريزي صنّف كتاباً بعنوان (النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم) يعكس عنوانه الفحوى الأساسي من الضدية بين هاتين الأسرتين التي تحولت إلى نزاع وتخاصم، كما تعلنها معارك ونزاعات دموية في الجاهلية والإسلام، ومعركة صفين على وجه التحديد. فمن بين الأمثلة على أدب المفاضلة والضدية في هذه المعركة كتاب بعثه معاوية إلى الإمام علي عليه السلام استهله بما نصّه «يا أبا الحسن، ان لي فضائل كثيرة، كان أبي سيداً في الجاهلية، وولاني عمر في الإسلام، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وخال المؤمنين وأحد كتّاب الوحي..» البلاذري: جمل من انساب الاشراف جزء٥ (تحقيق د.سهيل زكار، بيروت) ص١١٩. فكان جواب الإمام قوله "أبالفضائل يفخر عليّ ابن آكلة الاكباد» وردّ عليه الإمام بشعر مضاد بقوله

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن امي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... غلاماً قبل حين اوان حلمي

م. ن. (جزء٥ ص١١٩.)

وتبرز بوضوح الأفضلية والضدية في ردّ الإمام على كتاب آخر بعثه معاوية وهو يقول فيه «إنك لو علمت وعلمنا ان الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فاعلم إنك وايانا منها إلى غاية لم نبلغها بعد» فكان ردّ الإمام عليه السلام بقوله «وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة، وان قولك إنّا بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل، فليس كذلك لأن أمية ليس كهاشم، ولا حرباً كعبد المطلب، ولا أبا سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق، وفي أيدينا فضل النبوة التي بها قتلنا العزيز، ودان لنا بها الذليل» [أبو حنيفة الدينوري: الاخبار الطوال ص١٨٧]. وفي حوار بين معاوية وعمرو بن العاص حول مراسلة الإمام علي لمعاوية طالباً منه

البيعة، قال عمرو لمعاوية «وان علي بن أبي طالب فإن المسلمين لايساووان بينك وبينه، فقال معاوية إنه مالأ على قتل عثمان واظهر الفتنة وفّرق الجماعة. قال عمرو إنه وان كان كذلك. فليست لك مثل سابقته وقرابته» (ابن دحية الكلبي: اعلام النصر المبيّن في المفاضلة بين أهلي صفين، تحقيق د.محمد محزون طبعة أولى، بيروت ١٩٩٨، ص١٤٩).

فالسابقة إلى الإسلام والقرابة من الرسول الكريم ﷺ هما العاملان الرئيسان في عنصر الضدية والمفاضلة، وان البروفسور بوزورث مترجم كتاب النزاع والتخاصم للمقريزي إلى الانجليزية على حق عندما ترجم المفاضلة rivalary *.

على أية حال، فإن هذا الإيحاء الأولي الذي يعكسه عنوان الكتاب مع موائمته للفكرة المطروحة في فلسفة المفاضلة، وان البروفسور بيترسن لم تغب عن ذهنه ولكنها في واقع الحال لاتمثل الحقيقة كلها. إنه حقاً وظّف المفاضلة توظيفاً منهجياً تحليلياً. وهي السمة البارزة التي اتسمت بها مدرسة الاستشراق (الدنماركي)، فكتاب بيترسن بالأحرى يدور حول مهمة بحثية بالأساس ألا وهي دراسة تفكيكية في أصل ونشأة الرواية التاريخية متأثراً بما لاشك فيه بمستشرقين كبار من الجيل الأول أمثال كيتاني وفلهاوزن وفاجيلري وديللا فيدا وغيرهم. ويتجلى هذا المنهج بوضوح عند البدء بقراءة الكتاب، إذ سرعان ما يدرك المرء إنها دراسة استشراقية تحليلية قيّمة أخذت على عاتقها منهج تفكيك الروايات التاريخ إسانيداً ومتنا وصولاً إلى نتائج ومحصلات تفيد كثيراً في فهم جديد بصيغة سيّر الأحداث التاريخية التي تمركز حولها الكتاب ألا وهي معركة صفين التي وقعت بين الخليفة الشرعي الإمام علي ﷺ وبين معاوية، والي الشام، الذي كانت تعوزه الفضائل التي تميّز بها الإمام، لذلك فإنه اتجه اتجاهاً سياسياً مدعوماً بفكرة القرابة أيضاً لكن ليس القرابة من أهل بيت

* Bosworth ,C.E. [translator with introduction and commentary:al-Maqrizi's Book of contention and strife concerning the relations between the Banu Umayya and the Banu Hashim (University of Manchesrter) J.of Semetic studies ,Monograph no.٣] p.١٢

www.ketab.ir

الرسول ﷺ إنما بادعائه إنه وليّ الخليفة المقتول عثمان بن عفان ﷺ، ومن أجل بلوغ الهدف السياسي فإنه رفع شعار المطالبة بثأر الدم لقتلة الخليفة. في الوقت الذي التزم بسياسة انهزامية حين طلب منه الخليفة المحاصر بالحاح المساعدة العسكرية لفكّ الحصار المفروض عليه ولذخر الثوار. والمتفق عليه ان معاوية أعدّ جيشاً لنجدة الخليفة غير إنه لم يتدخل، حتى ان الخليفة نفسه قال له بأنه .أي معاوية. يود ان يقتل الخليفة ليعدّ العدة ضد الخلافة الشرعية باعتباره ولياً. علماً بأن هناك من هو اقرب من معاوية صلة وقرابة بالخليفة.

ان هذا المشروع التاريخي في المفاضلة والنزاع قد فرض على البروفسور بيترسن ان يرجع في حالات كثيرة إلى الوراء قليلاً وإلى أحداث الجمل وما قبلها إلى الحدث الأساس .كما يعتقد بيترسن .وهو الفتنة الكبرى في التاريخ الاسلامي .على رأي المرحوم طه حسين .. وقد سعى المؤلف بجهد ومثابرة إلى تكوير رؤى أحداث الجمل وصفين وإلى حد ما الخوارج في مركز تاريخي واحد وهو الفتنة وهي عند عدد من الباحثين الثورة أو عند البعض الآخر تمرد الامصار الاسلامية الأساسية الثلاثة: البصرة، الكوفة، مصر ضد الخليفة الراشدي الثالث عثمان ﷺ وتداعيات الموقف التي كانت سريعة جداً ومذهلة إذ اندفع الثوار إلى وضع حدّ للحدث وانهائه بمأساة تراجيدية مؤلمة بقتل خليفة رسول الله وهو يقرأ القرآن الكريم

وواقع الحال فإن الأستاذ بيترسن قد جهد في كتابه للوصول إلى هدف علمي مهم في فلسفة التدوين التاريخي الاسلامي وذلك باتباعه منهجاً في البحث التحليلي لمرويات هذه الأحداث ومسطّراً حالة من التواصل والاستمرارية في خط المنهج البحثي في الاستشراق الدانمركي ومن تأثر بهم وبالأخص كيتاني وفلهاوزن وفاجيلري وفريدلاندر وغيرهم كثر. وهو حافز قد شجعني إلى الاستشهاد بمنهجه لجعله انموذجاً في منهج إعادة قراءة تاريخنا الاسلامي قراءة جديدة متحررة تعمل بجدّ على تنقيته مما علق به من اشكاليات كثيرة في تدليس الروايات التاريخية وتزييفها وتلفيقها والدسّ فيها وتخليصه من ظاهرة مهمة جداً وهي ظاهرة التعديلات والتكييفات من

www.ketab.ir

اضافات أو اختصارات أو تحويرات صارت الشغل الشاغل لرواة الطبقات والاجيال المتأخرة. إنه المنهج الذي ينبغي ان تعتمد ـ مع صعوبته وكثرة تشعباته لاسيما عند باحثينا الجدد الذين لايمتلكون القدرة والشجاعة والاهتمام والأمانة والصدق ـ لقلب المفاهيم التي سعت بتلك الأساليب المضللة ان تبني وتصوغ رواية متسلسلة ظلت مقبولة لدينا وطيلة قرون كثيرة، حتى أضحت الآن رواية ثابتة يحرّم اختراقها ـ مع إنها رواية لاتستنطق الواقع التاريخي بصدق ـ وهي التي توجه بحوثنا وكتبنا بل ومناهجنا.

ومما لاشك فيه ان هذا المشروع الذي نتخيله ونتمنى ان يتحقق تكتنفه خطورة كبيرة من لدن اولئك الذين تعودوا على تدريس الرواية التاريخية تلك ولم يتعودوا على بحثها واستقرائها في البحث، وهي أيضاً خطيرة منهجياً لاسيما عند الباحثين الذين يضعون المعيار الشكّي أمام بحوثهم ودراساتهم وباستمرار والحاح. إذ ان من المحتمل جداً ان يصل الباحث المتّبع لهذا المنهج إلى منحصلات بالغة الأهمية فيعزل الكثير من المرويات وربما الأحداث التي هي ثابتة وراسخة في عقليتنا التاريخية، وإذا كنا جريئون فإن هذا المنهج قد يؤدي بنا إلى نفي بعض الأحداث ـ لاتغييبها ـ ونفي وجودها التاريخي. إنها مسألة جدّية ومهمة جعلت الكثير من الباحثين والاكاديميين وبالأخص الإشارة إلى الحاجة إلى مثل هذه المنهجية في صفوف الباحثين العراقيين الذين ـ والعديد منهم ـ يشككون بأعمال المستشرقين ويستنكرونها، فإن المستشرقين إنما يهدفون إلى هذا البناء التاريخي التقليدي المتعارف عليه. ومع أهمية مواقفهم ورؤيتهم العاطفية وغير الموضوعية هذه إلا ان علينا وعليهم مجرد الاصغاء إلى تطبيق هذا المنهج على شريحة من الأحداث التاريخية ثم علينا وعليهم ان نتعامد مع المنهج ولا نتقاطع بهدف الوصول إلى ما هو أفضل. إنه مطلب بسيط تتطلبه مباني الحوار مع الآخر، وهو مطلب يتعلق بمدى صدقية وموثوقية الروايات التي رويت عن أحداث في مراحل السيرة النبوية المطهّرة وتاريخ ما بعد السيرة وعن معركة الجمل وصفين والخوارج أو الروايات المروية عن الإمام علي عليه السلام والخلافة وما نتج عنها من رفض وانعزال أو لنقل ابتعاد عدد من الصحابة المبايعين للخليفة الشرعي ومن توترات

www.ketab.ir

ومعارك مؤسفة حقاً، هذه المرويات إذا ما فككنا أسانيدها ومتونها ومضامينها آخذين بعين الاعتبار النعوت والاوصاف بل والأحكام التي عبّر عنها مؤلفو النقد الديني في الجرح والتعديل من مواقف نقدية جريئة وقاطعة أزاء المصادر الأساسية في تلك المرويات. فإذا أخذنا اقوال علماء الجرح والتعديل وتراجم وكتاب التراجم مثلاً بشأن لوط بن يحيى، أبي مخنف وهو الراوية الأساسي والوحيد أحياناً عن أحداث معركتي الجمل وصفين، وهو الذي صنف كتاباً بعنوان (كتاب صفين)، وإذا ما ادخلنا الاحصاء في هذه المسألة فإن عدد مروياته عن الحدثين في جزء من كتاب انساب الاشراف الموسوم (كتاب الجمل من انساب الأشراف) على سبيل المثال مجموعها ثلاث وثلاثين رواية يعدّ بعضها روايات مفصلة عن هذا الحدث. فأبو مخنف هذا الذي له الفضل الكبير في التدوين التاريخي العراقي عند علماء الجرح والتعديل ومؤلفي تراجم الرجال غير ثقة، وضعيف الرواية بل بالغ عدد منهم بقولهم إنه متروك الحديث. أما وصف أبي مخنف عند المعتدلين والعادلين من مؤلفي التراجم فهو مختلف تماماً، فابن النديم يصفه قائلاً ان أبا مخنف بأمر العراق واخبارها وفتوحها يزيد على غيره (ص١٤٩ ـ ١٥٠)، ويصفه النجاشي صاحب الرجال إنه «شيخ أصحاب الاخبار ووجههم» (ص٣٢٠) وقال عنه ياقوت الحموي في معجم الادباء بأنه «كان راوية اخبارياً صاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام» جزء١٧ ص٤١). ومن الجانب الآخر هناك راوية مهم في الاخبار التاريخية للقرن الأول الهجري هو سيف بن عمر الأسيدي التميمي الكوفي، فسيف عند علماء الجرح والتعديل ومؤلفي تراجم الرجال كابن معين والنسائي والحاكم النيسابوري وابن حبّان البستي زنديق وكذّاب ومختلق للاحاديث وضعيف ومتروك وغير موثق في روايته أحاديث النبي(ص). وتعدّ هذه المعايير في (وصف) الرجال مهمة جداً وتؤدي حتما إلى سقوط المعرّف به. غير ان سيفاً في رواية الفتوح والاخبار عند هؤلاء العلماء ذاتهم قد عدّوه (عمدة في التاريخ) وبأنه اخباري عارف (ينظر الذهبي، ميزان الاعتدال جـ٣ ص٣٥٣؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب جـ ١ ص٢٦٢).

www.ketab.ir

هكذا نجد ان علماء الجرح والتعديل قد اسقطوا أبي مخنف نهائياً في الرواية التاريخية وتعرّض بعضهم إلى سبب ذلك لكونه رافضياً، أما الموقف من سيف بن عمر الذي تعزى إليه الرواية المعارضة لموقف الإمام علي وشيعته فإنه انقسم إلى جانبين في الأول كان موقفهم سلبياً من روايته الحديث الشريف أما في رواية الاخبار فكان سيف بن عمر، عندهم، ثقة وعمدة في التاريخ. كيف لنا ان نتميز العدالة في الحكم والتجريح؟ وكيف لنا ان نستبعد المرويات لمن وصف بالكذب والضعف، وهي مرويات إذا ما استبعدناه من التدوين التاريخي فإننا سنكون أمام ثغرة بل ثغرات كبيرة في قراءة التاريخ الاسلامي المبكر؟ كيف لنا ان نصدّق من وصف بأنه زنديق وكاذب ومختلق ومتروك في رواية الحديث من قبل كبار علماء الجرح والتعديل، في اخباره ومروياته التاريخية الحاسمة التي تشكل منعطفات في الأحداث التاريخية؟

فالمطلب الذي سبق ذكره في أحداث ثورة في إعادة قراءة التاريخ الاسلامي لم يكن منهجاً استشراقياً على وجه الحصر؟ حقاً ان المستشرقين قد طبّقوه وأخذوا به في الوصول إلى تفسيرات الكثير منها بحاجة إلى وقفة ومناقشة لا إلى التسفيه والتغييب. ولكنه في الأصل منهج قد شخصّه عدد من مؤرخينا الاعلام، وأخص بالذكر فيلسوف التاريخ العربي والاسلامي ابن خلدون. فإنه عند تعريفه التاريخ بأنه «في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفية الوقائع واسبابها عميق... وان فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها» إلى ان يقول «وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهمّوا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها» والأكثر أهمية قوله «واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها... ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح كليل، والغلط نسيب الاخبار وخليل» فما هي النتائج التاريخية لهذا المنهج؟ يعقب ابن خلدون قائلاً «والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل» المقدمة/ دار الفكر/

ضعيف وإلى من يريده عالم الجرح والتعديل عالماً مرموقاً، كما هو الحال في زماننا هذا، وإلى من يطمس عالميته ولايجعل له وزناً. كل شيء جائز إذا اعتمدنا مقاييس شخصية ومعايير موتورة في التصنيف والتمييز، مع ان أمد ذلك لابد ان يكون قصيراً أمام التقدم العلمي في البحث والتقصي والموازنة العلمية التي تخترق الذاكرة التي بقيت أسيرة وضيقة بفعل ضيق الذاكرة وخضوعها لوهم الكهف. فتفكيك الرواية التاريخية ولا أقل تفكيك الحديث الشريف سنداً ومتناً وزماناً ومكاناً هو المعيار الذي يبقى عادلاً وإلى الابد.

فراوية مثل سيف بن عمر الأسيدي التميمي الكوفي ولادة اتهم بالزندقة كما اتهمه علماء الجرح والتعديل بدينه وقول بعضهم إنه ساقط الحديث لاشيء، وإنه كذّاب وضعيف ومتروك الحديث، وإنه غير موثوق في رواية الحديث. من جانب آخر وضف بعض علماء الجرح والتعديل محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي المشهور بأنه ضعيف ليس بشيء. وكما ذكر الإمام الشافعي ان كتب الواقدي كذب، وقد اتهمه الإمام احمد بن حنبل بأنه يقلب الأحاديث واسنادها إلى غير رواتها تارة وبالكذب المتعمد تارة أخرى. وقد وصفه ابن معين قائلاً ان حديثه ليس بشيء، متهماً إياه بالوضع وما إلى ذلك من انتقادات علمية دقيقة وشديدة حسب موازين علم الجرح والتعديل. أقول فإن هذا يجعل الباحث - أي باحث - يقف متحيراً تارة ومتردداً في قبول وتقبل روايات أمثال هؤلاء المؤرخين والرواة تارة أخرى. وفي كلتا الحالتين فإنه لابدّ عليه من ان يسقط في منهجيته البحثية الكثير من الروايات التاريخية بله الحديثية، ولاسيما بالنسبة إلى موضوعنا في معارك الجمل وصفين والخوارج، وتدفعنا إلى التمعن في قراءة مواقف العلماء السلبية الناقدة والجارحة للصدقية والموثوقية فيمسالة سيف بن عمر ملا الذي انتقده العلماء جرّحوه في رواية الحديث وليس في رواية الاخبار فهو عندهم ثقة. إلا ان الباحث الحصيف والعادل والجدّي لا ولن يوفق في وضع خط أحمر بين وصف سيف بأنه كاذب وزنديق وليس بشيء في رواية الحديث وبين ان يكون زاوية ثقة للخبر التاريخي وفي كتابه (الفتوح الكبير والردة). أو فيما

أورده الطبري من روايات في موضوع الكتاب الذي بين أيدينا (علي ومعاوية) وبصورة أخص فيما عرف بأن ميوله القبلية التميمية كانت واضحة في تحريك وتسيير وربما صياغة الروايات. والواقع ان المستشرق الالماني بروكلمان قد وقف على هذه المسألة عندما اتهم سيفاً بالغلو في ذكر اخبار قبيلته والفخر باقدامها وايامها الأمر الذي دفعه إلى تحريف الروايات وتدليسها خلال سرده للأحداث التاريخية. فقد دأب إلى ارجاع أسانيد رواياته إلى رجال من بني تميم أو رجال من بني أسد أو إلى رواة كان قد نسي اسماءهم. فالسؤال المطروح هنا، كيف لنا ان نقتنع بأن أخباره التاريخية موثوقة مئة بالمئة؟ وكيف لنا ان نقتنع بأن راوية آخر هو أبو مخنف، رائد المدرسة الاخبارية العراقية، بأنه صادق وثقة، وهو الذي اتفق العلماء في الجرح والتعديل على توصيفه بأنه ضعيف وغير ثقة ومتروك في رواية الحديث، مع إنه في الجهة المقابلة ثقة في رواية أخبار العراق وفتوحه وإنه يزيد على غيره في هذا الميدان وإنه شيخ أصحاب الاخبار بالكوفة ووجههم، وإنه صاحب التصانيف وإنه راوية للاخبار، وقد اعتمده كل من البلاذري والطبري كثيراً. وكيف لنا ان نحدد موقفاً من ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م، والمعلوم ان الزهري مشهور في تدوين الحديث الشريف وتدوين الرواية التاريخية، وهو ممن اتفق علماء الجرح والتعديل على موثوقيته العالية وصدقيته، فكيف لنا ان نقف منه وهو يدوّن لمعركة صفين وقد وضعه المستشرق بيترسن ممثلاً أساسياً لمدرسة المدينة وكذلك كيف لنا ان نأخذ موقفاً منه في موقفه من الإمام علي ومن معارك الجمل وصفين لأن مروياته تميل إلى جانب معاوية والأمويين بشكل واضح. ومما له أهمية في هذا الجانب ان ابن شهاب الزهري كانت له علاقات ودّية ووطيدة بالبلاط الأموي. وكان الخلفاء الأمويون يوجهون إليه أسئلة بشأن التاريخ الاسلامي أيام الرسول الكريمص والخلفاء الراشدين فيجيب عليها، فكيف يا ترى كانت إجاباته؟ ثم إنهم كانوا يستدعونه إلى البلاط للاستماع منه عن أمور تاريخية. فابن شهاب الزهري، شئنا أم أبينا، كان معوّلاً عليه في عملية الإعلان والإعلام. وهو الذي صار مصدراً للبلاذري في أنسابه وحول معركة صفين لأكثر من

اثنتين وعشرين رواية كان في جميعها إنما يقدم رواية أموية أو مؤيدة للأمويين. حقيقة ان هذا القول لاينبغي ان يفهم بأية حالة من الأحوال بأنه موقف سلبي أزاء رائد مدرسة المدينة في الحديث والتاريخ؛ ولكنها مسألة لها مغزى ان يتصل الزهري بعبد الملك ابن مروان وبالوليد وبعمر بن عبد العزيز. وبالوليد بن يزيد وبهشام بن عبد الملك، وان مروياته ومواقفه وأجوبته قد لاقت استحسانهم. وان كتابة عمر بن عبد العزيز إلى عماله في الآفاق كتاباً نصه «عليكم بابن شهاب هذا، فإنكم والله لاتلقون أعلم سنة ماضية منه» [ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل جزء٨ ص٧٢]. ومع إنه قول صحيح لكن لايعدم من ان يقرأ من زاوية أخرى، ألا وهي ثقة الأمويين بمواقفه منهم، وعلى عماله ان ينشروا ذلك بين الرعية. ألا ترى إنه يتضمن إعلاماً كالاعلام الذي أجبر عن طريقه معاوية العمال في الآفاق في غسل أدمغة الناس باقصاء الروايات المتعلقة بأبي تراب؟ فالمعتقد ان ذلك لايعدم من ان تكون لتلك العلاقات الوطيدة مع الخلفاء تأثيرات نافذة في أدائه في رواية التاريخ. والمعلوم ان ابن شهاب الزهري قد روى أحاديث عن الإمام الباقر عليه السلام وإنه أمضى معظم جلساته بصحبة الإمام زين العابدين ودرس على يديه، واعتماداً على قول الإمام احمد بن حنبل فإن الإمام زين العابدين عليه السلام يعدّ الوحيد الذي استطاع ان يخلص الزهري من حزنه (ينظر المسند، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة ١٩٤٦) مجلد٣ حيث رقم ١٨٨٢، ١٨٨٣. ابن سعد: طبقات، تحقيق سخاو جزء٥ ص١٥٨)، وكيف لنا تصديق مرويات هشام بن عمّار الدمشقي الذي كان راوية للمعلومات الخاصة بمعاوية، وقد اعتمده البلاذري في أنسابه، الجزء الخاص (مجمل أنساب الأشراف) بسيرة معاوية في ستة وعشرين رواية كان في جميعها هشام راوية أو داعية لمناقب معاوية وصفاته في الكرم والسخاء والدهاء والحكمة. وان معاوية قد صارع رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فصرعه، فقال الرسول صلى الله عليه وآله «أو ما علمتم ان معاوية رجل لايصارعه أحداً إلا صرعه» (أنساب جزء٥ ص٣٩) والرواية الاعلامية الأخرى بأن عمرو بن العاص قد ذكر معاوية وهو في مصر قائلاً «ان إمامكم لممن سهّل الله خليقته وقوّم طريقته وأحسن صيغته، فمن كانت

النعمة تبطره إنها لتذلّله وتوقره» [أنساب جزء٥ ص٦٥]. وهشام هذا كان من أكثر المقربين إلى معاوية حتى إنه روى مرويات شخصية كروايته عن معاوية وابنته رملة (أنساب جزء٥ ص١١٧). فإلى هشام ترجع رواية بأن عمر بن الخطاب ﷺ كان يرى في معاوية كسرى العرب (أنساب جزء٥ ص١٥٥) وإليه ترجع أيضاً رواية رويت عن الأوزاعي بأن معاوية قال في مرضه: كنت أوضئ رسول الله ﷺ فقال لي: «ألا أكسوك قميصاً»؟ قلت: بلى بأبي أنت وأمي، فنزع قميصاً كان عليه فكسانيه، وقلّم أظفاره فأخذت قُلامتها، فإذا مت فالبسوني القميص، وخذوا القلامة فاجعلوها في عيني، فعسى الله.» (م. ن. جزء٥ ص١٦٠). والملاحظ ان البلاذري قد وضع في جميع مروياته عن هشام بأنه الحلقة الأولى في سنده. وهناك راوية آخر اعتمده البلاذري كثيراً عن طريق اسناد إلى المدائني وهو ابن جعدبة، أبي يزيد بن عيّاض بن يزيد البصري.وقد وقف علماء الجرح والنقد منه موقفاً سلبياً إذ اتفقوا على تضعيفه في رواية الحديث كالنسائي في كتابه الضعفاء والمتروكين (جزء١ ص١١) وابن حبّان البستي في كتابه المجروحين (جزء٣ ص٨) وأبي نعيم الأصبهاني في كتابه الضعفاء (ص١٦) وابن أبي حاتم الرازي في الجرح والتعديل (جزء٩ ص٨٢٨). وابن جعدبة يعدّ مصدراً مهماً عند البلاذري في نقل مرويات مؤيدة لمعاوية. كذلك الحال مع الراوية جويرية بن أسماء بن عبيد الضبي البصري المتوفى سنة ١٧٣/ ٧٨١. فقد وصفه ابن سعد بأنه صاحب علم كبير،ورأى فيه ابن معين «ليس به بأس». الطبقات الكبرى جزء٧ ص٢٨١؛ ابن أبي حاتم الرازي جزء٢ ص٥٣١.

أما صالح بن كيسان الذي درجه الأستاذ بيترسن ضمن مدرسة الرواية الشامية (السورية) فقد توفي سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م فهو شيخ محمد بن اسحاق وأحد الشخصيات العلمية في المدينة في الفقه ورواية الحديث الشريف، كان مولى من موالي بني غفار وقيل كان مولى لامرأة من آل معيقيب. كان ابن كيسان موضع ثقة وثناء من علماء الجرح والتعديل (الذهبي، سير اعلام النبلاء جزء٥ ص٤٥٤) ودخل في خدمة البلاط الأموي أيام عمر بن عبد العزيز فصار مؤدباً لأبنائه، كما دخل في خدمة الوليد وأدّب

ابنه (ابن حبّان البستي: الثقات جزء٣ ص٤١٤). فكيف لنا تصديق المرويات التي أوردها بشأن معاوية وعمرو بن العاص بشأن مجريات أحداث ما قبل معركة صفين وما بعدها ونحن نقرأ الرواية التي أوردها البلاذري نقلاً عن عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الكناني المعروف بابن دأب المكنّى بأبي الوليد، الذي وصف بأنه كان منكر الحديث واتهم بوضع الحديث (ابن الجوزي، الضعفاء والمتروكين، بيروت ١٩٨٦، جزء٢ ص٢٤٣؛ البلاذري: أنساب جزء٣ ص٨٩). وتتعلق الرواية بمعاوية حينما أشار إلى عمرو بن العاص استمالة جانب عبد الله ابن عباس ضد قضية علي إذ إنه رأس الناس مع علي قائلاً له «أفلو ألقيت إليه كتاباً تعطفه به». فكتب عمرو إلى ابن عباس بهذا المعنى، فأجاب عبد الله بن عباس إجابة مفعمة بالحماس إلى جانب على ضمنّها ابياتاً من الشعر على غرار القافية التي قد استخدمها عمرو بن العاص في رسالته. فلما قرأ معاوية ردّ ابن عباس قال «ما كان أغنانا عن هذا». وبعد ان انتهى نصّ الرواية والرسالة عقّب هشام بن عمار وهو راوية معاوية كما ذكرنا قائلاً «هذا الحديث مما صنعه ابن دايم هذا» أي عيسى بن يزيد إذ اتهم بوضعه الأحاديث. ولعيسى ابن يزيد رواية أخرى نقلها البلاذري بشأن ملاحاة وقعت في مجلس معاوية بين الوليد بن عقبة وعمرو بن العاص، وبعد ان انتهت الرواية عقّب هشام بن عمار أيضاً برأي في غاية الخطورة والأهمية إذ قال لعيسى «نظرت في أحاديث معاوية عندكم فوجدت أكثرها مصنوعاً، وذكر هذا الحديث» (البلاذري، أنساب جزء٣ ص٨٩، جزء ص٨١).

ولكي نكون أوضح معتمدين على أمثلة من التاريخ والانساب والتراجم نأتي بروايات وردت في مؤلفات موثوقة. فالمعروف ان البلاذري الذي عوّل البروفسور بيترسن على مروياته وعدّه مؤرخاً معتدلاً وتحليلياً قد اعتمد في كتابه انساب الاشراف وفي الفصل الخاص بمعاوية على الرواية الأموية أو البصرية الموالية للاموية المتمثلة بالمدائني إذ إنه استشهد بأبي الحسن المدائني في ما عثر عليه من الجزء الخامس المعنون (جمل من أنساب الأشراف) والخاص بمعاوية غطى مائة وستة واربعين صفحة مطبوعة (١٤٦صفحة) كان نصيب المدائني منها مائتي رواية جميعها عن معاوية

وصفاته، وكرمه، وحلمه، وعلاقاته التي يميزه فيها بالصفات والسجايا الحميدة اعتمدها المدائني عن رواة بصريين في الغالب كسحيم بن حفص البصري (أبو اليقظان النسابة) وعن جويرية بن أسماء الضبي البصري ويزيد بن جعدبة الليثي البصري وغسّان بن عبد الحميد البصري سكنا وغيرهم. والجدير بالملاحظة ان البروفسور بيترسن قد أطنب في الاشادة بمنهج البلاذري التحليلي وغير المتحزب، ونحن لانرى ذلك ابداً وعلى الأقل في الأجزاء المحققة من انسابه، فهو في الجزء الخاص بمعاوية لم يكن إلا جامعاً للمرويات الأدبية والسياسية والخاصة بمزاج معاوية والثناء على حلمه وكرمه واتزان رأيه في الرجال والنساء المنجبات وفي كونه ناصحاً شاعراً حكيماً في ابداء الحكم وهو صاحب الرواية التي ادلى بها المدائني عن راوية غير معروف هو علي بن مالك وصارت مثلاً يعتمد حتى الآن وفيما بعد ونصها «لا أضع لساني حيث يكفيني مالي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، فإذا لم أجد من السيف بداً ركبته» (البلاذري، انساب، جزء٥ ص٢٨). فهل هذه حقاً هي سياسة معاوية أزاء من لايتفق معهم وأمامنا مثال صارخ في وجه هذا القول وهو الصحابي حجر بن عدي. والبلاذري هو صاحب قول المدائني عن سحيم أبي اليقظان بقوله «لو وزنت بالدنيا لرجحت فيها ولكني وزنت بالآخرة فرجحت بي» م. ن. ص٣١. والبلاذري هو صاحب هذه الرواية القادحة وعن المدائني عن عبد الله بن فائد ان معاوية قال لأسامة بن زيد «رحم الله أم ايمن كأني انظر إلى ساقيها وكأنهما ظنبوبا نعامة خرجاء، فقال اسامة: هي والله خير من امك واكرم، فقال معاوية: واكرم أيضاً؟ قال نعم قال اسامة: نعم، قال الله عز وجل (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) م. ن. ص٤٠، كيف يتقبل الذوق والإباء مثل هذه المناقشة، لا ادري؟!.

ولذلك فإن البلاذري لم يعتمد منهجاً تحليلياً في اختياره الروايات بقدر ما كان يجمع الرواية الهزيلة والضعيفة دون ان يتحرى عن قائلها وفيما إذا كانت صحيحة أم إنها محرّفة وفيما إذا كانت من صنع راويها كبوق لأعمال معاوية ومآثره أم غير ذلك.

أما الراوية الآخر الذي خصّه البلاذري في نقل روايات عن معاوية والتمجيد بما

كان يقوله لرجاله وبطانته وعن علاقاته الشخصية هوهشام بن عمّار فالبلاذري قد اعتمده في خمس وعشرين رواية في الجزء الخاص بمعاوية. وكان هشام ينقل بعض الروايات عن أبيه. والمهم في أمر هشام هذا إنه قدّم رواية تفيد كثيراً جداً في تقييم الرواية التاريخية وتظهر بصراحة التدليس والصنع والتزييف في النقل وفي التدوين التاريخي. وإذا صدقنا قوله فإننا سنضطر إلى استثناء خزين كبير من المرويات التي شغلت مناهجنا وبحوثنا. ففي رواية جاءت بصيغة «حدثت» اعتماداً على عيسى بن يزيد الكناني بأنه قال: كان بين الوليد بن عقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص لحاء بين يدي معاوية، فقصبه عمرو فقال له الوليد: اسكت يا عبد السلطان وأخا الشيطان، يا منزوع الحياء وطوع النساء، يا ألأم أهل بيته وأذل عشيرته لقد بلغ بك اللؤم الغاية القصوى المذلة لأهلها في الآخرة والأولى، فمنعت الحقوق ولزمت العقوق وقاربت أهل الفضل فقال عمرو: إنك لتعلم إني مرّ المذاقة وان ليس لك بي طاقة، وإني حية الوادي، وداهية الاعادي، لا اتبع الاقياء ولا انتمي إلى غير الاباء، احمي الذما في المضمار، غير هيوبة للوعيد ولا فروقة، رعديد، اطعم الطعام واضرب الهام أفبالبخل تعيرني واياه حالفت وعليه جبلتَ؟!. فقال معاوية: أقسمت لما سكتما،...ثم انتقلت الرواية بعد أبيات من الشعر قالها الوليد لانهاء هذه الملاحاة التي كشفت لنا .الذين نبحث عن الحقيقة التاريخية .اموراً مهمة من سيَر هؤلاء الذين تولوا الولايات وملكوا رقاب الأمة، انتقلت هذه الرواية على الصيغة الآتية وانقلها نصاً «قال لي .هل يعني المدائني وهذا أمر بعيد أم إنه عيسى بن يزيد الكناني وهو الأكثر قبولاً .هشام بن عمّار: نظرت في أحاديث معاوية عندكم فوجدت اكثرها مصنوعاً، وذكر هذا الحديث"؟! (ن. م. ص٨١) فهل إشارة هشام هذه تؤشر إلى رواية عيسى بن يزيد بن دأب الكناني المتوفى سنة١٣٣هـ/ ٧٥٠م وهو الذي وردت عنه الكثير من الروايات عن عمرو بن العاص ودوره في إثارة أهل الشام ضد الإمام وعن علاقته مع معاوية واتفاقيته بشأن محاربة الإمام مقابل اعطاء عمرو مصر. إنها رواية خطيرة ان كان هشام بن عمار، راوية معاوية على حق. وهي رواية مهمة في منهج البحث التاريخي إذ إنها نصّت دون ادنى

www.ketab.ir

شك على أنّ الكثير مما ورد بهذا الشأن هو مصنوع، والمصنوع ليس تحريفاً ولا تزييفاً ولا تعديلاً إنما يعني بوضوح ان الحادث لا وجود له اطلاقاً إنما قد صنع واختلق بأشخاصه وتفصيلاته من قبل هشام أو عيسى بن يزيد أو غيرهما من الرواة. كيف لنا ان نصدق ونحن بعد هذه القرون التي أصبحت فيها رواية هشام أو عيسى ثابتة في سطور كتبنا وبحوثنا؟ مَن مِن هذه الروايات صحيح ومن هي التي دخلت في مصنع هشام أو عيسى ابن يزيد لتخرج وتدوّن في التاريخ بأنها حدث وأحداث تاريخية!؟

ويبدو ان صناعة واختلاق الرواية التاريخية بله صناعة معظم مرويات التاريخ الاسلامي في قرنيه الهجريين الاولين اضحت منفذاً لكتابة تاريخ غير معوّل عليه تماماً بقول الأستاذ المدرسي في دراسته القيمة (تطور المباني الفكرية)* وهو على حق بأن عنصراً متميزاً وجديداً ظهر في هذه الفترة، فترة معاوية وما بعده من الأمويين والفترة العباسية الأولى، قد ساعد وسرّع من نقل واذاعة الروايات والاحاديث ألا وهو ذهنية الرواة، رواة الحديث وغيرهم، التي تعتبر كثرة الرواية إنما هي مقياس يعبّر عن منزلة الراوي العلمية. وبتأثير من هذه الذهنية راح المحدثون يروون بلهفة وحماس كل ما يسمعونه من شيوخهم وأساتذتهم فكثرت أحاديث الرواة من سنة وشيعة. حتى ان الرواة السنة دونوا في بعض الحالات رسائل خاصة تتضمن روايات مغايرة لأسس المذهب الذي ينتمون اليه، وهم يبررون مسلكهم هذا بمقولة (الرواية غير الدراية) وان الراوي ليس مسؤولا عن صحة الحديث الذي ينقله عن مشايخه، ويضيف قائلا «لذلك كان الرواة يروون أحياناً ما يجدونه في النسخ المختلفة من الكتب المتقدمة باسنادهم إلى تلك الكتب مع ان الاضافات والاختلافات تدل بوضوح على التحريف اوالاضافات التي الحقها بها الوضّاعون أو حتى مما شكّ العلماء في صحة نسبتها إلى مؤلفيها». وللتدليل على ما رآه الأستاذ المدرسي من تفسير بالغ الخطورة على التدوين التاريخي والتدوين الحديثي على حد سواء، ما ذكر ان أبا الحسن علي بن محمد

* ينظر المدرسي، حسين المدرسي الطباطبائي: تطور المباني الفكرية للتشيع في القرون الثلاثة الاولى (ترجمة) د.فخري مشكور، مطبعة شريعت طبعة اولى ١٤٢٣ هـ) ص٧٧.

المدائني في كتاب اسماه (الأحداث)، وهو مفقود قال فيه ان معاوية قد كتب كتابا بنسخة واحدة .ويعني بنص واحد .إلى عماله بعد عام الجماعة يقول فيه «ان برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليا ويبرؤن منه ويقعون فيه وفي أهل بيته» (ينظر ابن أبي الحديد، شرح النهج البلاغة م٣/ جزء١١ ص٦. واعقب هذه المرحلة من التغييب وصناعة وتلفيق الرواية التاريخية مرحلة ثانية إذ إنه «كتب كتابا إلى عماله في جميع الافاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة وكتب إليهم ان انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم واكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته ففعلوا ذلك» م. ن. وتلت هذه الخطوة الهادفة إلى تشويه التاريخ خطوة خطيرة أخرى إذ كتب إلى عماله «بأن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب ألا وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله فقرئت كتبه على الناس» (م. ن.) فماذا تعتقد ان تكون نتيجة هذا المصنع التحريفي ان ينتج من روايات ومؤلفات لاسيما وان سيف السلطان العاتي فوق الرؤوس واكياس البيضاء والصفراء إلى جانب العامل والوالي وخطيب المنبر. فتقول الرواية «فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى اشادوا بذكر ذلك على المنابر وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن حتى علّموه بناتهم ونسائهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله» م. ن. إنها حقيقة لا مراء فيها بأن الناس يلهثون وراء المادة فيلهثون وراء تعلم الخطأ مع معرفتهم إنه مصنوع ومختلق، فهذا الصنف من الناس الذي وصفهم الإمام علي عليه السلام هم الغوغاء الناعقون وراء كل ناعق. والأنكى من

ذلك ان هؤلاء الرواة وبتحفيز من المادة والسيف لم يكتفوا بروايات محرّفة ومصنوعة بل أخذوا بالمبالغة في اعادة الصناعة المزيفة وبزيادة الاضافات والتعديلات والمصنوعات من الروايات التاريخية والأحاديث. قد يقول قائل ان هذه المعلومات غير صحيحة، وان المدائني الذي روى الروايات الإعلامية الكثيرة عن معاوية ومناقبه المفتعلة، لايبالي بصحة ما يروى أو إنه كان غير صحيح العقيدة حسب مصطلح علم الرجال. ولكن المعلومات قد شرحها الإمام الباقر﵇ أثناء شرحه المعاناة التي كان يعاني منها أهل البيت ومؤيدوهم وانصارهم. فإذا ما ادعى الداعي إلى ان قول الإمام غير صحيح، فإننا إذن سنقول ان كل ما جاء في التاريخ الاسلامي بحاجة إلى دليل لاثبات صحته وإنه من صناعة مصنع التاريخ الأموي. واللعنة كل اللعنة على اولئك الذين حملوا العلم مسموعاً فحسب قول الإمام علي﵇ يقول «ليس ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع» فأناس كثر قد اشتغلوا بالعلم الدهر الاطول فلم ينجح معهم العلاج وفارقوا الدنيا وهم على الغريزة الأولى في الساذجية وعدم الفهم (م. ن. مجلد٤ جزء١٩ ص٣٩٩) ويصف الإمام الباقر﵇ هؤلاء متعجباً فيقول «فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا الاموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الاخبار والاحاديث إلى أيدي الديانين الذين لايستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون إنها حق ولو علموا إنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها» م. ن. وربّ سائل يسئل عن الحقبة التاريخية التي انشئت فيها معامل صناعة الرواية التاريخية والإحاديث هذه، إنها الفترة منذ اتفاقية الإمام الحسن مع معاوية وامتدت حتى موته ثم اعادها عبد الملك بن مروان حتى نهاية أمر هذه الدولة. ويدلل ابن أبي الحديد على النتائج الخطيرة لهذه العملية الذكيّة في تشويه التاريخ الاسلامي الذي أعلن قطيعته مع آل سفيان فيقول «وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من أكابر المحدّثين واعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر وقال ان

www.ketab.ir

أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون إنهم يرغمون به أنوف بني هاشم» م. ن. فالعملية هذه إنما هي نتيجة أساسية من نتائج الضدية والأفضلية بين بني أمية وبني هاشم.

ولنأخذ مثالاً عن مؤرخ أو راوية مشهور هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي المتوفى في الكوفة عام ١٠٤هـ/ ٧٢٢م عن عمر ناهز الثمانين سنة. كان الشعبي متقلباً في موقفه السياسي، ففي بدايته كان من اتباع المختار الثقفي، غير إنه بدّل فجأة من موقفه وهرب إلى البصرة ثم ولى هارباً إلى المدينة. وهناك التقى بعبد الله بن عمر بن الخطاب، وبعد فشل ثورة المختار مال إلى عدو المختار وقاتله مصعب بن الزبير. ونتيجة لقصة مفتعلة درّ عليه مصعب عشرة آلاف درهماً، وصار الشعبي من أقرب المقربين لمصعب وهو الذي وصف مصعباً قائلاً «ما رأيت أميراً قط على منبر أحسن من مصعب» (البلاذري أنساب جزء٥ ص٢٧٩ القدس١٩٣٩). ومع هذا فإنه سرعان ما غيّر ولاءه إلى جانب عبد الملك بن مروان، قاتل مُصعب. بعد ذلك نجح في الوصول إلى أخي عبد الملك بشر بن مروان والي العراق، فكان يدخل على بشر في خلواته ويحضر مجالس طربه وعربدته. وعيّنه هذا على المظالم مقابل راتب سخي. وعندما توفي بشر أعقبه الوالي المعروف بظلمه وجوره الحجاج، فما كان من الشعبي إلا ان يسارع في عرض ولائه للحجاج، فيروي الشعبي إنه لما جاء الحجاج إلى الولاية «سألني عن أشياء (ولكنه لم يذكر ما هي هذه الأشياء ولعلها تتعلق بالعلويين) فوجدني بها عارفاً، فجعلني عريفاً على قومي ومنكباً على جميع هذا وفرض لي فلم أزل عنده بأحسن منزلة» (الذهبي، تذكرة الحفاظ، بيروت جزء١ ص٨٥؛ د. هادي حسين حمود: الشعبي، طبعة أولى ـ بغداد ١٩٩٨ ص١٩ ـ ٢٠). ظل الشعبي متنعماً بفيض ورعاية ودعم الحجاج الثقفي؛ ولكنه ولأسباب غامضة لم يكشف عنها ـ ولعلها مادية، أو لنيل حظوة أفضل ـ مال الشعبي إلى حركة عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج. وبعد فشل الحركة، أصبح في موقف حرج لايحسد عليه، وبذكائه المنفعي مال إلى قتيبة بن مسلم الباهلي المقرّب جداً من الحجاج وصار كاتباً عنده ـ مع العلم ان الروايات تعلن

ان الشعبي كان جاهلاً لايعرف القراءة ولا الكتابة . ثم استخدم قتيبة للوصول إلى الحجاج ثانية. واعتذر للحجاج عن موقفه ونافق فقبل الحجاج عذره. غير ان الشعبي اتخذ هذه السياسة المنفعية منهجاً له فسعى إلى الوصول إلى عبد الملك الذي ألزمه تعليم أولاده وتأديبهم ثم صار نديماً وسامراً للخليفة، فعلت مكانته عند عبد الملك حين بعثه سفيراً إلى امبراطور الروم. وظلّ على هذه الحالة عدة سنوات ثم تحول إلى بلاط عبد العزيز بن مروان والي مصر. والشعبي هذا هو صاحب القول الذي دوّنه باحثونا في تاريخ عبد الملك ممن أراد ان يفخر ويشيد بهذا العاهل، قال «والله ما علمته إلا آخذاً بثلاث تاركاً لثلاث. آخذاً بحسن الحديث إذا حدّث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر المؤونة إذا خولف، تاركاً لمجاوبة اللئيم ومجاراة السفيه، ومنازعة اللجوج» (ابن عبد ربه: العقد الفريد، القاهرة ١٩٦٩، جزء٢ ص٢٤٧) وهذا القول يذكرنا بقول له في مصعب بن الزبير الذي ينطوي على تملق ونفاق «ما رأيت أميراً قط... الخ» ومثل هذه الاقوال قالها للحجاج بعد فشل ثورة الاشعث «ولم أجد من الامير خلفاً» (الطبري مجلد٢ ص١١١٣). وفي رواية أخرى مصطنعة قال الشعبي «وفدت على عبد الملك فما أخذت في حديث أرى إنه لم يسمعه إلا سبقني إليه وربما غلطت في الشيء وقد علمته فيتغافل عني تكرماً» أنساب جزء١١ (تحقيق غريفز وولد/ ١٨٨٣ ص١٦٨). هذان النموذجان لهما الدليل القاطع على عدم صدقية الشعبي وخطّه في التملق والنفاق لبناء شخصي ومادي. ثم تنقلت الأحوال بالشعبي إلى ان تقرّب إلى عمر بن عبد العزيز الذي عيّنه على قضاء الكوفة. وللشعبي رأي أبداه بشأن والي العراق عمر بن هبيرة زمن يزيد ابن عبد الملك. إذ توجه الوالي بسؤال إلى القرّاء والفقهاء عن مسألة مفادها ان الوالي يتسلم كتباً من الخليفة «فيها ما فيها فإن أنفذتها . كما يقول ابن هبيرة . وافقت سخط الله وان لم أنفذها خشيت على دمي» (العقد الفريد جزء١ ص٥٨). وكان رأي الفقهاء وجوب طاعة الله ما عدا الشعبي إذ أفتى فتوة مرائية طبعاً قائلاً «قارب وسدد فما أنت إلا عبد مأمور» م. ن. وهي فتوى أراد منها ان يكون الوالي منافقاً مع الله تماماً كما فعل هو في علاقته مع الخلفاء والأمراء الظالمين، وقد

أحسن البلاذري بالفعل حين وصف فلسفة الشعبي بقول للشعبي «أحب صالح أمير المؤمنين وصالح بني هاشم، ولاتكن شيعياً، وأرج ما لم تعلم، ولاتكن مرجئاً. وأعلم ان الحسنة من الله والسيئة من نفسك، ولاتكن قدرياً، وأصب من رأيته يعمل بالخير وان كان أخرم سندياً» (البلاذري، أنساب جزء٥ ص١٧٣) فقد جمع في قوله هذا كل أسباب النفاق والتزلف ولاسيما للمسؤولين الأمويين. وتتأكد هذه الفلسفة النفعية في رأيه المتعلق بأصحاب المذاهب والفرق، طبعاً جميع الفرق دون استثناء فقال «إنما سميت الأهواء أهواء لأنها تهوي بصاحبها إلى النار» (أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، القاهرة ١٩٣٥، جزء٤ ص ٣٧٠).

ولكي نعلم كيف كان الشعبي اذاعة وبوقاً للأمويين فإنه روى مرويات كثيرة وقد أخذها شفاها . أي على طريقة على عهدة الراوي . من أفواه الصحابة والتابعين اولئك الذين سكنوا العراق. وإنه قد روى عن الكثير من صحابة الرسول ﷺ شفاها ممن عاصرهم وهو لما يزل طفلاً صغيراً وكذلك من التابعين بينهم عدد من النساء، فقد روى أحاديث عن أبي موسى الأشعري وعن ابنه أبي بردة وعن فاطمة بنت قيس (ابن سعد، طبقات جزء٦ ص٢٤٧، ٢٤٨). وروى إنه رأى الإمام علي ﷺ وصلّى خلفه، وإنه أيضاً زعم بأنه أدرك خمسمائة صحابي (أبو نعيم، حلية جزء٤ ص٣٢٣) وإنه أيضاً أدرك بعض أمهات المؤمنين من أمثال السيدة عائشة والسيدة أم سلمة والسيدة أسماء بنت عميس ﷺ (ن. م. جزء٤ ص٣٢٨). ومما يستحق الذكر فإن الطبري روى ان الشعبي قد ولد سنة ١٩ هجرية. والملاحظ أيضاً ان الشعبي حسب رواية الذهبي «كان حافظاً وما كتب شيئاً قط» (سير اعلام النبلاء جزء٤ ص٢٩٧؛ د.هادي حسين حمود، الشعبي ص٣٨ . ٣٩) وان الشعبي نفسه قال إنه لم يكتب سوداء في بيضاء، ويعلق ابن فضيل أحد العلماء على قوله هذا «وهذا يدل على إنه أمي لا كتب ولا قرأ» [م. ن. جزء٤ ص٣٠١]، فقد وصف بأنه كان حفيظاً حتى ان ابن عبد البر قال «الذين كرهوا الكتاب . يعني الكتابة . ابن عباس والشعبي كانوا قد طبعوا على الحفظ» (الاستيعاب جزء١ ص٨٣). ووصفه تلميذه ابن عيّاش الهمذاني . وهو من قبيلة الشعبي . إنه «إذا

تكلم كأنه غول فتحت فاهاً» [ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، بيروت ١٩٧٩ جزء٧ ص١٤٥؛ د.هادي حسين حمود في دراسته القيّمة الشعبي ص٣٩]. وكان الشعبي يتبجح بقوله «لو ان رجلاً حفظ ما نسيت كان عالماً» [ابن قتيبة: عيون الأخبار القاهرة ١٩٦٣ ص١٣٠] وهذه إشارة من الشعبي بأنه كان ينسى وقد نسي الكثير. وتبجح مرة قائلاً «اكتبوا ما سمعتم عني ولو في الجدار» (ابن سعد: طبقات جزء٦ ص٢٥).

لقد عرضنا بشيء من التفصيل أحد الرواة الذين اعتمدهم البلاذري والطبري في مواضيع الفتنة والجمل وصفين وأخبار الأمويين عبر عدد من رواته وبالأخص كاتبه . الذين من المحتمل جداً كان يسعفه في الكتابة .الهمذاني السري بن اسماعيل ومجالد بن سعيد الهمذاني اليماني الأصل الكوفي السكن راوية الأخبار الذي أكثر من مروياته عن الشعبي، وذلك لكي نتبين عنصراً مهماً من عناصر الشك في مروياته وأقواله. فمجالد بن سعيد راويته المكثر قد ضعّفه بعض علماء الجرح والتعديل كالإمام احمد ابن حنبل وابن أبي حاتم الرازي والعقيلي (ينظر الجرح والتعديل جزء٨ ص٣٦؛ العقيلي، أبو جعفر: ضعفاء العقيلي، بيروت ١٩٨٤ جزء٤ ص٢٣٢). ولم نتعرض مثلاً لهشام بن عمار ولابن جعدبة وعيسى بن يزيد لعدم توفر المعلومات المفصلة عن سيرتهم وغيرهم بمثل ما توفرت لنا عن الشعبي الذي درسه الدكتور هادي حسين حمود دراسة مفصلة قيمة.

لقد كانت الفتوحات الاسلامية والوقائع الكبرى التي وقعت في النصف الأول من القرن الأول للهجرة حافزاً فعّالاً ودافعاً كبيراً على ظهور عنصر متحرك في التدوين التاريخي، إذ اندفع الرواة .الثقة منهم وغير الثقة .نحو جمع مرويات تلك الوقائع والأحداث لتفاعلها آنذاك بقوة مع مشاعر الناس وتوجهاتهم لأنها الإعلام والإعلان الوحيد الذي يربطهم عاطفياً بذاكرة التاريخ حيث تصارعت القوى والاتجاهات بين صحابة رسول الله ﷺ وخلفائه وأنصاره ومهاجريه. واعتمد هؤلاء الرواة مسلك النقل الشفوي والاستماع الشفوي في الكثير من الأحيان ثم كتابته ونقله إلى المهتمين في التدوين التاريخي ومؤلفي الرسائل والكتب فصنّفوا، كما فعل المدائني وأبو عبيدة

معمر بن المثنى والهيثم بن عدي وأبو مخنف، رسائل في الفتوح والمعارك والوقائع. وهي أعمال، لاشك إنها، جديرة بالتقدير والثناء. ومع ان كثيراً من هذه المدونات قد فقد أوضاع ولم يبق لها اثر إلا من خلال المرويات التي اعتمدها مؤرخون كبار نظير البلاذري واليعقوبي وأبي حنيفة الدينوري والطبري. فلولا وجود هذه المعلومات والأخبار لأصبح التأليف والبحث في تلك الموضوعات أمراً متعذراً. وكانت المعارك التي نتجت عن الفتنة الكبرى في الإسلام باغتيال الخليفة الثالث محفّزاً ودافعاً قوياً للرواة بمختلف مؤهلاتهم الروائية والعاطفية المتأثرة بأيام العرب وبمختلف انتماءاتهم وولاءاتهم وأغراضهم الشخصية والمنفعية في جمع أخبارها ومن ثم عرضها على المؤرخين والعلماء لنقلها وتدوينها. ويبدو في الأعم الأغلب ان هؤلاء المؤرخين اكتفوا فقط بروايتها على عهدة رواتها. فقد حظيت مثلاً معركة الجمل باهتمام كبير من الرواة والمؤلفين من كل جانب من الجانبين المتنازعين وقد أحصى المرحوم الشيخ محمد حسن آل ياسين في تحقيقه لكتاب (وقعة الجمل) من تأليف محمد بن زكريا بن دينار الغلابي البصري المتوفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠ برواية محمد بن يحيى الصولي من صنّف الرسائل عن معركة الجمل فذكر أبا عبد الله جابر بن يزيد الجعفي الكوفي المتوفى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥ بكتابه الموسوم (كتاب الجمل). وألف أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان البجلي المعروف بمؤمن الطاق كتاباً بعنوان (الجمل في أمر طلحة والزبير وعائشة). وألف أبو مخنف لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤ كتاباً بعنوان (الجمل). وكذلك صنّف أبو محمد مصبح العجلي وهو راوية روى عن الإمام الصادق عليه السلام كتاباً بعنوان (كتاب الجمل). وصنّف سيف بن عمر الأسيدي التميمي كتاباً بعنوان (كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي). ولأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١ كتاب بعنوان (كتاب الجمل). كما ألف أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي كتاباً بعنوان (كتاب الجمل). ولأبي المفضل نصر بن مزاحم المنقري الكوفي المتوفى سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧ صاحب كتاب صفين المشهور كتاباً بعنوان (كتاب الجمل). وألف أبو الحسن علي بن محمد المدائني كتاباً بعنوان (كتاب

www.ketab.ir

الجمل). ولأبي اسحاق اسماعيل بن عيسى العطّار البغدادي كتاب عن الجمل. كما ألف عبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩ كتاباً عن الجمل، ولأبي جعفر احمد بن محمد البرقي كتاب بعنوان (الجمل) وكذلك لأبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي الكوفي المتوفى سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٧ كتاب عنوانه (كتاب الجمل)، وألف الغلابي كتابين عن الجمل أحدهما عنوانه (كتاب الجمل الكبير) والآخر (كتاب الجمل المختصر). وألف أبو القاسم المنذر ابن محمد القابوس كتاباً عن الجمل، كما صنّف عبد العزيز بن يحيى بن احمد بن عيسى الجلودي البصري المتوفى سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣ كتاباً بعنوان (كتاب الجمل)، ولأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي المتوفى سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١ كتاب بعنوان (كتاب الجمل)، ولأبي عبد الله محمد بن محمد العكبري المتوفى سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢ كتاب بعنوان (كتاب الجمل) [ينظر صفحة ٨ ـ ١٢ من تحقيق وقعة الجمل للشيخ آل ياسين طبعة أولى/ بغداد ١٩٧٠].

وقد صنّف الرواة والمؤرخون عدداً من الرسائل والكتب عن معركة صفين منها (كتاب صفين) ليحيى بن سليمان الجعفي أحد شيوخ البخاري، كذلك ألف جابر بن يزيد الجعفي كتاباً بعنوان (صفين) ولجابر بن نمير الأنصاري رواية عن صفين. ووضع عمرو بن شمر كتاباً عن معركة صفين، كذلك صنّف أبو مخنف كتاباً عن صفين، وألف اسماعيل بن عيسى العطّار البغدادي كتاباً عن صفين، ولنصر بن مزاحم كتاب بعنوان (وقعة صفين)، ويذكر ان الواقدي ألف عن صفين. وان أبا محمد زكريا الغلابي البصري ألف عن معركة صفين، وان ابراهيم بن الحسين الهمذاني المعروف بابن ديزل أو ديزيل المحدث ألف كتاباً عن صفين، وكذلك ألف أبو الخطاب ابن دحية الكلبي كتاباً عن صفين. وصنّف اسحاق بن بشر وهو من أصحاب السير والأحداث كتاباً عن صفين [ابن النديم ص١٠٦، ١١١].

ولعله من الصحيح القول بأن المؤلفين الذين ألفوا رسائل عن الجمل قد ألفوا أيضاً رسائل وكتب عن صفين.

■

www.ketab.ir

- فالمتأمل في هذا الكم من المؤلفات .رسائل أو كتب .عن معركتي الجمل وصفين لابد ان يتبادر ذهنه إلى التساؤل عن العوامل المحفّزة على ذلك؟ أأنها عوامل تتعلق بطبيعة المرحلة التاريخية بما له علاقة بالذاكرة الاسلامية للوقائع والمعارك؟ وتحديداً بالسنوات الستة الأخيرة من خلافة عثمان ﷺ عندما استقر أمر الفتوحات شرقاً وغرباً فاستقرت بذلك أفكار المسلمين فأخذوا يتطلعون إلى رواية تجاربهم وأيامهم وأوضاع خلافتهم؟ أم ان ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى حدثين أساسيين يتعلقان بالصراع بين تيارين سياسيين هما تيار اسلامي تبنى المركزية والسلطة الشرعية المنتخبة بوسيلة من الوسائل وبين التيار القبلي الذي يقف معارضاً لذلك ولايرضى بشيء مقابل الزعامة القبلية؟ أم ان ذلك يرجع إلى عوامل تتمركز حول النتائج التي أعقبت وفاة رسول الله ﷺ والتي أعقبت النتائج الخطيرة التي شهدتها سقيفة بني ساعدة؟ أم إنها عوامل تتعلق بالحدث الذي ركّز عليه الأستاذ بيترسن ألا وهو الفتنة الكبرى في الإسلام أي مقتل الخليفة الثالث؟ أم إنها عوامل لها علاقة بالتصارع التاريخي بين بني هاشم وبني أمية وان ظهور النبوة في بني هاشم قد أثار ضغينة وحقد بني أمية خاصة وقريش عامة كما عبّر عن ذلك الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بقوله ان قريشاً تكره ان تجتمع النبوة والخلافة في بني هاشم. أو كما عبّر عن ذلك الإمام علي ﷺ في عدد من خطبه وأقواله منها: -«اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم أضمروا لرسولك صلى الله عليه وآله ضروباً من الشر والغدر فعجزوا عنها وحلت بينهم وبينها فكانت الوجبة بيّ والدائرة عليّ، اللهم احفظ حسناً وحسيناً ولا تمكّن فجرة قريش منهما» [شرح نهج البلاغة مجلد٤ جزء٢٠ ص٥٥] وقوله «ما لنا ولقريش يخصّمون الدنيا باسمنا ويطؤن على رقابنا فيالله وللعجب من اسم جليل لمسمًى ذليل» [م.ن. مجلد٤ جزء٢٠ ص٥٤٤]. وقوله أيضاً «كل حقد حقدته قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وأظهرته فيّ ستظهره في وَلَدي من بعدي. مالي ولقريش إنما وترتهم بأمر الله وأمر رسوله أفهذا جزاء من أطاع الله ورسوله ان كانوا مسلمين» [م. ن. مجلد٤ جزء٢٠ ص٥٦٤]، ألا ترى ان الحقد والبغض قد أديا دوراً مركزياً في الصراع وفي تحريف الرواية وفي تأليف

الكتب والرسائل، إنه الحقد الذي قاد بعض شخصيات قريش من الصحابة إلى الندم بعد فوات الأوان؛ فعندما ذكّر الإمام الزبير(رضي الله عنهما) في معركة الجمل بما سبق ان قاله الرسول ﷺ بشأنهما ندم واعتزل المعركة حسب الرواية الكوفية. كذلك فإن الرواية الكوفية تستشهد بندم الصحابي عبد الله بن عمر والصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

وكذلك لا محيص من الإشارة إلى قول الإمام في جوابه عن سؤال «يا أمير المؤمنين أرأيت لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم وآنس منه الرشد أكانت العرب تسلّم إليه أمرها. قال لا بل تقتله... هل كان يفعل ما فعلت كذاك لم يكن يقرّب ما قربت ثم لم يكن عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمنزلة بل للحرمان والجفوة إليهم. إنك تعلم إنيّ لم أرد الإمرة ولا علوّ الملك والرياسة...الخ» (شرح مجلد٤ جزء ٢٠ ص ٥٥١).

فماذا عسانا التعليق على هذه الاقوال التي تقطع بصراحة عن حقد قريش وضغينتها وعن التشخيص الدقيق الذي أعلنه الإمام علي للعوامل الشخصية والآنوية والمنفعية في تحريك أسس معارك الجمل وصفين والخوارج ضد خليفة شرعي بويع بيعة خاصة وعامة من المهاجرين والأنصار ومن الصحابة الموجودين في المدينة.

ومن غير شك فإن تحليل الروايات التي رويت عن الجمل وصفين تحليل مقارن وعادل، مع الصعوبة الكبيرة التي تكتنف تلك العملية، قد يساعد على الوصول إلى جو مقارب للحقيقة بالقاء الضوء على طبيعة المرحلة وعلى التحولات الحضرية التي رافقت الفتوحات وتميزت بامتلاك العديد من الصحابة للأموال والعقار ودخولهم المجال العملي في مسألة الربح والخسارة الماديتين وكذلك في تأثير اللاوعي التاريخي في من انحسر عن المسرح السياسي والاجتماعي، وفي من قتل من ابنائه واخوانه وأقاربه في العشيرة بسيوف الإسلام وفي من ظل بعيداً عن روح الإسلام وجوهره أو في من لم تنجح الأيام القلائل والشهور المعدودات على اعتناقه الإسلام في تحويله إلى مسلم ومؤمن، (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا

ولما يدخل الايمان في قلوبكم) صدق الله العلي العظيم.

■

فالبروفسور بيترسن قد حقق نتائج علمية عالية في تتبعه التحليلي لاسانيد المرويات عن معركة صفين بالدرجة الأساس. إذ ابتدأ بتصنيف رواته البارزين على أساس اقليمي .محلي فكان صالح بن كيسان المتوفى سنة ١٤٠/ ٧٥٧م وهو شيخ محمد بن اسحاق وراوية معروفة في الفقه ورواية الحديث مدني من الموالي، مولى غفار وقيل غير ذلك. وقد وثّقه علماء الجرح والتعديل كالبخاري والعجلي وابن حبّان البستي. ومع إنه مدني في المولد والنشأة والسكن فقد عدّه الأستاذ بيترسن ممثلاً للرواية الشامية .السورية، إذ انه دخل في خدمة الخليفة عمر بن عبد العزيز مؤدباً لابنائه والوليد بن عبد الملك فانتقل عندها إلى دمشق. في هذه الحالة فإنه من الصعب ان نجعله ممثلاً للرواية السورية ونلغي خلفياته المدنية تماماً. كذلك الحال بالنسبة إلى ممثل الرواية المدنية ابن شهاب الزهري القرشي المتوفى سنة ١٢٤هـ/ ٧٢٢م فإنه مديني النشأة والسكن، ومن رواة الحديث الشريف والمغازي المتفق عليه بالصدقية والموثوقية. وهو كصالح نظراً لمكانته العلمية احتاجه البلاط الأموي فاتصل بعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز والوليد بن يزيد وهشام بن عبد الملك ليجيب هؤلاء الخلفاء عن تساؤلات بشأن مغازي رسول الله ﷺ وهي نقطة لها مغزى مهم جداً، فعمر بن عبد العزيز كتب إلى الافاق إلى عماله (عليكم بابن شهاب هذا فانكم والله لاتلقون احداً اعلم بسنّة ماضية منه) (ابن سعد: الطبقات الكبرى «القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، تحقيق زياد ومحمد منصور، المدينة المنورة ١٩٨٨ ص١٦٢) ولانعلم ما هو الدافع الرئيسي الذي دفع بالخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ان يكتب إلى عماله سنة ٩٩هجرية ليعتمدوا ابن شهاب الزهري، أأنه قد كان على علم ويقين بصناعة رواية الحديث التي بدت منتشرة في الاقاليم التي تسلّمت قبل نصف قرن تقريباً كتب معاوية في الصناعة والتلفيق في روايات الحديث الشريف والروايات التاريخية، هناك رواية لها أهمية مميزة اوردها ابن سعد إذ قال (ويروى ان الزهري

أمضى معظم جلساته بصحبة الإمام علي بن الحسين) (ينظر طبعة سخاو جزء٥ ص١٥٨) ويذكر الإمام احمد بن حنبل في مسنده ان الإمام زين العابدين كان وحده قادراً على تخليص الزهري من حزنه (المسند القاهرة ١٩٤٦) مجلد٣ حديث ١٨٨٢، ١٨٨٣. وفي الواقع ان ابن شهاب قد روى احاديثاً نقلا عن الإمام الباقر ودرس على يدي والده الإمام علي بن الحسين. ويبدو ان خدمته في البلاط الأموي أيام عبد الملك قد أثرت عليه في ان ينحو منحى جديداً. ومع ذلك فإنه أيضاً مدني في الولادة والنشأة والسكن إلى حين انتقاله إلى البلاط الأموي في دمشق. وهي مرحلة مهمة لاتجعلنا نميل إلى إنه ظل يمثل المدرسة المدينية في رواياته التاريخية عن الأمويين.

بينما ميّز البروفسور بيترسن الرواية الضدية لرواية الشام وهي الرواية الكوفية التي بدأت ثابتة في خطها الاخباري وانتهت به.

وهو أيضاً لايغفل الرواية العثمانية البصرية وميلها وأحياناً اندماجها بالرواية الشامية الأموية.

فكتاب البروفسور بيترسن متميز بقدرته على استيعاب النص العربي وملازمته دوماً قراءة البروفسور الايطالي كيتاني. وهو كتاب حريّ بالترجمة والقراءة، وان تحتويه المكتبات.

نرجو من الله العلي القدير ان نكون قد وفقنا في ترجمة هذا الكتاب

ومن الله الموفقية والفلاح

أ. د. عبد الجبار ناجي
بغداد
ايلول/٢٠٠٦

www.ketab.ir

تقديـــم

الحـرب الاهليـة الاولـى ٦٥٦ م ـ ٦٦١م والخـصومات والتنـافرات الفرقيـة بـين الجماعات التي ظهرت نتيجة لها قد برهنت على انها تنطوي على اهمية حاسمة في تطور الاسلام. ولا عجب، اذن، بان التفسيرات اللاحقة للصراع بين علي ومعاية قد اثارت واحدثت تفسيرات خاطئة وتحريفات جدية في سياق الواقعية للاحداث. ففي دراسة سابقة حاولت فيها ان أعيد بناء وانظم من جديد بعض الاتجاهات والمشاكل لهذا الصراع مستنداً على المصادر الاولية. وان هذا الكتاب يقدّم ويعرض محاولة لتتبع تشكيل وصياغة الرواية التاريخية التي رافقت الحرب الاهلية الاولى عن عن طريق تطبيق معايير حديثة في منهج البحث التاريخي. واخيراً حاولت ان اقيم وأسس صورة ومخططاً لنشأة الكتابة التاريخية الدنيوية «Profane» في الاسلام، بقدر ما يمكن اعتبار الصراع بين علي ومعاوية إنموذجاً. ولذلك فان الكتاب يهدف الى الجمع بين الدراسة التاريخية والتدوين التاريخي (Historiographical) والمنهجية للصراعات والنزاعات الاولى في الاسلام.

وقد تم انجاز مخطوط الكتاب في صيف ١٩٦٢، ولذلك لم يكن بوسعي ان استثمر وانتفع من الاصدارات الحديثة. وانني أأسف بشكل خاص لعدم حصولي على كتاب (مؤرخو الشرق الاوسط)* الذي حققه برنارد لويس وبي هولت، المطبوع في لندن

---

* يقصد البروفسور بيترسن كتاب Historians of the middle east مؤرخو الشرق الاوسط الذي

www.ketab.ir

١٩٦٢)، ومع ذلك فانه بلطف من البروفسور برنارد لويس قد سنحت لي الفرصة بان اراجع مقالتين من هذا التأليف بصيغة نسخة مطابقة لأصل مخطوط الكتاب. وباستثناء المصطلحات والاسماء الشائعة فان الكلمات الشرقية قد عرضت هنا بصيغة الحروف العربية المستخدمة في دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الجديدة منها.

ولم يبق لي الا ان اتقدم بالشكر الى جميع اساتذتي في جامعة كوبنهاكن وهم: البروفسور استرد فرلز Astrid Frils، واكسل كرستنسن Aksal, E. Christensen، وبوفل باك Povl Bagge، وسفن هننغسن Sven Henningsen وكرستوف كلمن Kristof Glamann والمدرس المرحوم إيرك باج Erik Bach. وانني اشعر بالدين للبروفسور كريستنسن والبروفسور فريد لوكار Fred Lokkegaard لتشجيعهما المتواصل وتأثيرهما الملهم. وانني توافق ايضا الى شكر والدتي (المهندسة الأقدم والسيدة اس. دبليو. بيترسن) بحرارة لجوهدهما في منفعتي وان المكتبة الملكية في كوبنهاكن قد سهلت كثيراً عملي بتوفيرها الكتب غير المتوفرة هنا. وانني ايضا اود شكر البروفسور برنارد لويس والاساتذة في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في لندن اذ مكنتني مساعدتهم من ان أتولى وأأخذ على عاتقي الدراسات الادبية الاضافية. وفي الختام أود ان أطيل شكري الحار الى مؤسسة Videnskabsfond Almindelige Staten. والقنصلية البريطانية لدعمهما المادي للبحث الذي لا غنى عنه بل يعد اساسيا في هذا الكتاب. وقد تولى الترجمة الانكليزية للكتاب السيد لامب كريستنسن الذي اشكره قلبيا لصبره واعتنائه بالعمل

بيترسن
مايس ١٩٦٤

حققه البروفسور برنارد لويس والبروفسور بي. م. هولت المطبوع في اول طبعة سنة ١٩٦٢ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٤ في لندن. وقد تضمن هذا الكتاب اربعة بحوث تتعلق بالرواية التاريخية والتدوين العربي الاسلامي هي:- بحث البروفسور مونتغري وات وبحثه الموسوم (المواد المستخدمة من ابن اسحاق) وبحث البروفسور فرانتز روزنثال وبحثه الموسوم (تأثير الرواية التوراتية على التدوين التاريخي الاسلامي)، وبحث البروفسور عبد العزيز الدوري المرسوم (المدرسة العراقية للتاريخ حتى القرن التاسع - دراسة مختصرة)، وبحث البروفسور السير هاملتون كب الموسوم (أدب التراجم الاسلامي) [المترجم].

www.ketab.ir

مقدمة المؤلف

برهن مقتل عثمان في المدينة في حزيران ٦٥٦م بأنه حدث مهم جداً ويعد مطلعاً لعهد جديد making epoch في التاريخ الاسلامي، فهو حدث، كما عبّرت عنه كلمات المؤرخين العرب، قد شكّل وكوّن استهلالاً لذلك الانقسام السياسي ـ الديني (فتنة) التي سببت ليس فقط في حدوث سلسلة من النزاعات والصراعات المؤلمة والعنيفة في السنوات التي اعقبت حدوثها ولكن ايضا في الانقسام الدائمي للمجتمع الاسلامي الى فرق (أحزاب) ومجموعات متضادة يصعب المصالحة بينها[1]. وفي الوقت ذاته فان مقتل الخليفة بحد ذاته قد أثير من قبل عناصر كامنة للتوتر كانت بالفعل موجودة داخل المجتمع العربي وهي: انقسامات وخلافات بين الثيوقراطية الاسلامية المحدثة حديثاً، المكيون المحمديون[*] ورفاقهم المدنيون، وطبقة النبلاء القديمة في مكة

---

(١) ان المعنى الحقيقي للفتنة هو Scruple وهو تحديد موقف المرء من المشاكل الدينية التي نجمت عن مقتل الخليفة ينظر فلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها (بالانجليزية) كلكتا ١٩٢٧؛ الطبعة الالمانية (١٩٠٢) [ترجم من مؤلفات فلهاوزن هذه كتاب: الدولة العربية وسقوطها ترجمة يوسف العش، دمشق ١٩٥٦. وترجم الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة كتابه (تاريخ الدولة العربية)، القاهرة ١٩٧٨؛ كما ترجم له كتاب الخوارج والشيعة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٥٨] [المترجم].

(*) إشارة الى المسلمين وهو تعبير اعتاد المستشرقون على ذكره بالرغم من خطأه فيقصدون (المحمدية) الاسلام نسبة الى الرسول الأعظم محمد(ص)، وبعض المستشرقين المغرضين يهدف الى جعل الاسلام والقرآن الكريم من بنات افكار النبي(ص) وهو تفسير حاقد طبعا وغير صحيح تاريخيا وعلمياً [المترجم].

www.ketab.ir

تحت الزعامة الأموية، والجماعات العربية البدوية. وفي حقبة لاحقة الى حد ما، فان حالة التوتر هذه يبدو قد أجّجها جماعة جديدة معلي بن ابي طالب ومفسروا وممثلوا مبدأ الشرعية، لابن عم الرسول وصهره، كشخصية مركزية وان أبا بكر وعمر قد نجحا الى هذا الحد في دعم تسوية مؤقتة Modus Vivendi وذلك بتحديد هوية البرنامج الديني للاسلام بغريزة حب الحرب عند القبائل العربية، وهي السياسة التي كانت نتيجتها المباشرة تلك الموجة التوسعية الكبيرة الاولى في ثلاثينات سنة ٦٣٠. وان الخلفاء الخمسة الاول في الوقت نفسه كان عليهم ان يأخذوا بعين الاعتبار الامويين اذ ان من الطبيعي ان مصالحهم التجارية في سوريا قد وضعت زعامة وتنظيم النتوج في هذه المناطق بأيديهم.

ومع ذلك فلدينا ادلة، خلال عهد عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) ولاسيما خلال عهد خليفته عثمان، في تبرعم ونشوء حالة التذمر والاستياء بين تلك القبائل العربية التي قد اسهمت في التوسع بالفتح، سواء من حيث النظام العسكري الصارم ام من حيث المنافع والامتيازات الاقتصادية التي حصدتها وكسبتها الارستقراطية الاسلامية الجديدة في الحجاز خلال عهد عثمان، وقد حصد الامويون من عمليات الفتح ايضا.

ومن الواضح ان هذه الظروف قد وفّرت الادوات للثورة ضد عثمان وفي هذه الحالة فانه من الصعوبة بمكان ان يعزى انتخاب علي(**) الى الخلافة الى اي رغبة للاعتراف بمبدأ الشرعية لان البدو .وبالأخص القبائل العراقية .والانصار قد سعوا الى استثمار والانتفاع من إمكانيات ملابسات الاحوال المباشرة وان ينقلوا التطور الى الوراء ثانية حيث السبل القديمة والاكثر صلاحاً وتقوى[1]. وعلى اية حال فان سلطة علي كخليفة لايمكن المحافظة عليها الا بالتعاون مع الجماعات التي وقفت وراء قتل عثمان

** لقد حافظنا في الترجمة على نصوص المستشرق بيترسن ولم نضف تعبير (عليه السلام) او (صلى الله عليه وآله وسلم) أو (رضى الله عنه)، واننا نذكرها هنا للتنويه عنها في هذا الهامش [المترجم].

(١) ينظر فاجيلري Vaglieri (البحث في الإيطالية) (صراع معاوية والخوارج الاباضية) المنشور في مجلة مركز دراسات الشرقية في نابولي، كذلك لنفس الباحث في (دائرة المعارف الاسلامية – طبعة جديدة)، Veselý, ٣٦ AO xx ١٥vsgg ٩٦-

ولذلك فانه قد واجه مقاومة من المهاجرين المكيين الذين قد انتفعوا من التوسع وكان عليه ايضا ان يواجه تمرد طلحة والزبير في خريف ٦٥٦م.. اذ كانت مطاليبهما الغامضة الى حد ما للاصلاح هي، كما هو معتقد، معبرة عن احجامهم يحملا نفسيهما القبول بالبرنامج الذي يدل عليه ضمناً انتخاب علي، ومهما يكن، فانهما في تلك الظروف المذكورة كان من الصعب عليهما ان يتمكنا من تحقيق مطاليبهما، وان تمردهما قد قمع بالفعل في كانون الثاني في معركة الجمل (بالقرب من البصرة)[١].

وكان ردّ الفعل الاموي القوي الذي (تزعمته) الشخصية القيادية للدولة هو العنصر الاكثر طبيعية والاكثر اهمية، انه معاوية بن ابي سفيان الوالي السوري. وبما انه وليّ او قريب الخليفة المقتول ووفقاً للقران Pursuant to فقد أثارت المطالبة، ويعتقد انه كان في شهر كانون الثاني من سنة ٦٥٧م، بالثأر لدم الخليفة من قتلته، كذلك فأنه لم يعترف بأي تبرير ديني لفعلتهم. وقد اعتبر، في جميع الروايات، علياً على انه ضليع بعملية القتل لأن الاخير (يقصد الامام علي) قد مال في الواقع الى جماعة القائمين بعملية الاغتيال وعلى هذا ينبغي ان يتعرض للشبهة[٢]. ومن الناحية الاخرى فإن علياً وأنصاره قد كذّبوا ورفضوا في الحقيقة ان النص القرآني Lex taltionis ينطبق أو يمكن تطبيقه في الواقع على هذه الحالة ويرون إن إحداث استبدادية arbitrariness لعثمان قد أعطت الفرصة للقتل عمداً، ولهذا ينظر الى معاوية وكأنه متمرد ضد السلطة الدينية الشرعية، بذلك فان القتال ضد اولئك قد أُقر في القرآن (حتى reverts يرجع الى طاعة الله[٣].

ليس هناك أدنى شك بأن هذه الفتنة قد هزّت الأسس الحقيقية للمجتمع الاسلامي، وان هذه الارتيابات scruples او الفتنة قد ظهرت مرة اخرى تلقائياً في كل من معسكر

---

(١) ينظر كيتاني بالايطالية مجلد ٩ ص٣، ٧٢، ٢١٦

(٢) صالح بن كيسان عند البلاذري ص٤-٥؛ ينظر محمد بن اسحاق نفس المصدر ص٥٠٢، كيتاني مجلد٩ ص٢٨٤، ٢٨٩؛ نصر بن مزاحم: واقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري (تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون، القاهرة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥-١٩٤٦، ص٧٤.

(٣) واقعة صفين٣٣، ٢١٢، ٥٧٠، ٥٩٩؛ ينظر القرآن سورة٤٩ آية ٨-٩، (سورة الحجرات (مدنية)) وجاء قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) [المترجم].

www.ketab.ir

معاوية وعلي عندما التقى الطرفان في صفين الواقعة على نهر الفرات في صيف سنة ٦٥٧م. اذ أجبر علي على قبول التبرير بمقتل الخليفة وموقفه منه بما أشير اليه في مسألة الحكومة (التحكيم) استناداً الى القرآن. وكل طرف عيّن حكمه Umpire الخاص، فعين السوريون عمرو بن العاص وعيّن جيش علي ابا موسى الاشعري*، الذين كان من بين اولئك الصحابة الذين ارادوا لأسباب دينية الوقوف منعزلين عن الفتنة[١]. وعلى أية حال فان معسكر علي لم يعد منسجماً in unison بخصوص هذا القرار؛ فاحدى الجماعات ـ اولاً وقبل كل شيء كانوا من بين البدو ـ عرفت فيما بعد باسم الخوارج قد انسحبوا وذلك لأنهم قد أعدّوا الاتفاقية بأنها تتعارض مع وظيفة الخليفة الدينية، وقد قاموا بتضحيات في القتال ضد تمرد معاوية غير الشرعي فإنهم لم يعترفوا الا بالحكم العسكري، حكم الله في الصراع[٢]. ايضا ليس هناك اي شك بأن اصرار الخوارج الذي حدث في نفس الوقت اثر ديمقراطية الاسلام البعيدة المدى قد مثّلت جانباً واحداً للمعارضة ضد عثمان وكذلك الافكار التي اتخذت موقفاً وراء خلافة علي.

ويبدو ان المعارضة الخارجية قد أدت الى تأجيل التحكيم حتى شهر كانون الثاني ٦٥٩م عندما التقى عمرو مع ابي موسى في أذرح (وهي واحة تقع بين معان وبترا). واتضح الحكم بالنتيجة الى ان مقتل الخليفة كان عملاً غير شرعي وان علياً قد عرّض نفسه دينياً بتعاونه مع القتلة[٣]. لقد تعرض علي بالفعل الى اتهام الخوارج بالكفر خلال

---

* وجاء في نهج البلاغة للامام علي(ع) انه تطرق الى معنى الحكمين فقال (فاجمع رأي ملتكم على ان اختاروا رجلين فأخذنا عليهما ان يجعجعا عند القرآن. ولايجاوزاه وتكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه. فناها عنه وتركا الحق وهما يبصرانه وكان الجور هواهما والاعوجاج رأيهما وقد سبق استثنائنا عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق سوء رأيهما. وجور حكمهما. والثقة في ايدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق وأتيا بما لايُعرف في منكوس الحكم» (ينظر نهج البلاغة مجلد٢ جزء١٠ ص٥٠٢) [المترجم].

(١) فاجيلري ١ ص٢٦؛ Acta Orientalia (كوبنهاكن) مجلد٣٣ ص١٨٢.

(٢) غبريللي، اصول وجذور حركة الخوارج (بالايطالية) [١٩٤١] جزء٦ ص١١٠- ١١٧.]وللمؤلف كتاب ترجم من الايطالية الى الانجليزية بعنوان محمد والفتوحات الاسلامية الذي ترجمته الى العربية وقدمته للطبع [المترجم].

(٣) فاجيلري ١ ص٨٥؛ Acta Orientalia (كوبنهاكن). جـ٣٣ ص١٩٢؛ ان تاريخ فيسيا فاجيلري من الصعب الدفاع عنه. Inter alia وذلك لأنه اعتمد مصادر ثانوية. وبشأن موقع أذرح الذي لم يصفه

www.ketab.ir

تعرضه ـ حتى وان كان ذلك بشكل متذبذب ومتأرجح لاتفاقية صفين. ونشأت هذه المشاحنة في معركة النهروان (بالقرب من الكوفة) في تموز ٦٥٨م التي اندحر فيها الخوارج. يظهر التحكيم اللاحق بأنه قد سبّب ارتداداً قوياً من جهة علي وان السنتين الباقيتين من خلافته اتخذت شكلاً من اشكال الانحلال المتصاعد. والمتوالي الى ان وقع ضحية لاغتيال خارجي في شهر كانون الثاني ٦٦١م. وعلى أية حال فأنه في الصيف السابق كان معاوية قد تسلم فعلاً قسم الولاء في القدس[١].

في هذه الحرب الاهلية فان المبادئ الاساسية للاسلام قد تصادمت وتضاربت في صراع غير قابل للمصالحة. وعلينا ان نتذكر بأن حرب علي الدفاعية كانت تهدف الى (الابقاء على العقيدة* والتزامه بأن يتحمل القيادة الصحيحة وصولاً الى النصر[٢]. وان هذا الالتزام او التعهد قد ارتكز عليه بشكل طبيعي وذلك لأنه كان عارفاً للدين، وهي مسؤولية دينية أنعم بها الله عليه بصفته الإمام[٣]. ومن الجانب الاخر فقد ظهر ان موقفه

الجغرافيون العرب وصفاً دقيقاً بنظر فاجيلري، مقالة أذرح في دائرة المعارف الاسلامية (طبعة جديدة) مجلد١ ص١٩٤ وفي هذا المجال يذكر ابن حوقل ان أذرح هي مدينة الشراة وانها في غاية الخصب والسعة وان عامة سكانها من العرب (صورة الارض «بيروت» ص ١٦٠). وياقوت الحموي يرجّح ان أذرح من الجرباء وليس من فلسطين. وباذرُع كان امر الحكمين. ويذكر رأيا اخر مفاده ان التحكيم حدث في دومة الجندل لكن ياقوت يرجح اذرح والجرباء ويستشهد بشعر لذي الرمة في مدحه لبلال بن ابي بردة جاء فيه:

أبوك تلاقى الدين والناس بعدما تساءوا وبيت الدين منقطع الكسر
فشدّ إصار الدين، ايام أذرح وردّ حروباً قد لقحن الى عقر

معجم البلدان (بيروت) جزء١ ص١٢٩– ١٣٠ [المترجم].

(١) Acta Orientalia مجلد ٣٣ ص١٩٦.

* (أذرح) في دائرة المعارف الاسلامية طبعة جديدة مجلد١ ص١٩٤. [وفي هذا المجال يذكر ابن ابي الحديد في شرحه عن موقف كل من سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر من الامام علي، ان الامام قال فيهما ((عجباً لسعد وابن عمر يزعمان اني احارب على الدنيا، أفكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحارب على الدنيا فان زعما ان رسول الله صلى الله عليه وآله حارب لتكسير الاصنام وعبادة الرحمن فانما حاربت لدفع الضلال والنهي عن الفحشاء والفساد، أفمثلي يزنّ بحب الدنيا والله لو تمثلت لي بشراً سوياً لضربتها بالسيف)) شرح نهج البلاغة مجلد٤ جزء٢٠ ص٥٦٤. [المترجم]

(٢) البلاذري، ص٤٤١ (كيتاني مجلد١٠ ص٤١٨).

(٣) عن هذا المفهوم ينظر ال. كارديت (دين) في دائرة المعارف الاسلامية (طبعة ثانية) مجلد٢ ص٢٩٣، وبحث بهل Buhl:علي والخلافة (باللغة الالمانية، جامعة كوبنهاكن، نوفمبر ١٩٢١) صفحات ٤١، ٥٥، ٥٧.

www.ketab.ir

من الفتنة قد أثر في حكمه المتعاصر contemporaneous لاعتباره ولمقامه الديني الى درجة متميزة. فان مجرد الشك باحتمال تورطه او اشتراكه في مقتل الخليفة (ان كان هذا مظلوماً) يبدو انه قد أقنع او حثّ عدداً من صحابة محمد البارزين (من بينهم سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر) على الامتناع عن الاعتراف به وفضّلوا البقاء على الحياد[1]، مشابهة، بدوره في اراقة دماء زملائه المؤمنين في معركة الجمل وصفين والنهروان فان ذلك قد اثار شكاً مستفحلاً بخصوص دينه وعقيدته. اما بالنسبة الى الخوارج فأنه قد خسر forfeit دينه بسبب قبوله التحكيم، وان حكميه umpire ايضا قد اعتبرا موقفه من الفتنة موقفاً توفيقياً من الناحية الدينية الامر الذي يجرده من الأهلية في الخلافة.

ومهما يكن فان تقويض دين علي هو أحد الوجوه والمظاهر التي أخذت في الحساب لصالح انتصار الامويين. اما الوجه الاخر فيتمثل في خصال معاوية الشخصية. وفي هذه الحالة فإننا نجد ايضا عدم وجود اي اساس للفكرة بأنه طمع صراحة بالخلافة حتى فترة متأخرة جداً، ومن المحتمل انه ظل كذلك الى الفترة الى ان اعتبر الحكمان دين علي محل تساؤل*. ان النتيجة الناجحة لقتال معاوية لابد وانها تعزى الى دهاء معاوية السياسي والى ترويه الرزين، والى تسامحه فجميعها عبارة عن مظاهر لخصاله تلك التي تمثل مفهوم العرب للحلم[2]. وانتهازية معاوية جعلته ينتظر الى ان عرّض علي نفسه للشبهة بتصرفه او ادارته قبل ان يتدخل بقوة في مجرى الاحداث.

---

(١) النوبختي: فرق الشيعة (تحقيق رتر) جزء ٤، اسطنبول ١٩٣١ (Bib-Islam) ص٥ (ينظر مجلة تاريخ الاديان RHR ١٥٣، ١٧٩). الطبري مجلد ١ ٣٠٧٢ (كيتاني مجلد٨ ص٣٢٧؛ ينظر (بهل) بحثه عن علي ص٣٧، ٤٦.

* ان استنتاج الاستاذ بيترسن غير صحيح فالإمام علي لم يعّرض نفسه الى الشبهة، ولكن اصرار اتباعه في عدم الروية في اختيار الحكم الأوفق اما ابن عباس او الاشتر كما رأى الإمام هو السبب في جعل الاشعري يخضع لخديعة عمرو، على الرغم من تحذير ابن عباس له، بتخليه عن صاحبه الإمام علي في الحكومة بقصد أم بغير قصد والله اعلم [المترجم].

(٢) عن هذا المفهوم ينظر لامانس: دراسة عن عهد الخليفة الاموي معاوية في القرن الاول الهجري (بالفرنسية) بيروت ١٩٠٨، ص٦٦.

www.ketab.ir

حينئذ فان الارستقراطية المكّية القديمة بزعامة معاوية في سنوات ٦٦٠ ـ ٦٦١م قد وصلت الى الخلافة. وعلى أية حال فهناك سؤال موضع نقاش وهو الى اي مدى قد غيرت الحرب الاهلية وتسلم الامويين السلطة من البنية السياسية والاجتماعية للاسلام؟. لقد سعى معاوية وخلفائه المباشرين بوضوح الى متابعة خط الخلفاء الاول، واقصد في مساعيهم بالتنسيق والربط بين المصالح الاسلامية والبدوية في التوسع التي جمعت فيه هذه القوة الدافعة الجديدة. وفي الوقت ذاته، فان منزلة calibre معاوية قد ساعدته في الحفاظ على التوازن في المؤسسات القبلية التقليدية وبهدف تنظيم المجتمع العربي الارستقراطي في الظروف الجديدة. ومع ذلك فان الثورات الشيعية (شيعة علي) وثورات الخوارج التي سرعان ما تفجرت في العراق أدت الى البرهنة على ان هذا التوازن كان توازناً قلقاً، لاسيما عندما امتص او استوعب assimilation العرب في داخل الاقاليم الشرقية وكذلك عندما اعتنق الناس فيها الاسلام تدريجياً، فان ذلك قد عمّق العداء والنفرة وأضاف مشاكل اجتماعية للمشاكل السياسية اذ احتشد المستاؤون والمتذمرون من العرب والموالي (مفردها مولى) حول المعارضة الشيعية، لذلك فان حالة الصراع منذ خلافة علي لم تنحسر باغتياله، انما احتفظت بواقعيتها الفعلية حتى وان اتخذ العداء صفة مختلفة نوعاً ما. فالفتنة التي اثيرت باغتيال عثمان كانت ذات اهمية اساسية وقد استمر تأثيرها ليس فقط في انها تستدعي تفسيراً لاحقاً Posteriori وذلك بمقتضى او استناداً الى بنية المجتمع الاسلامي الخاصة وتسلسله السياسي والديني، ليس هذا فقط انما ايضا انها (الفتنة) ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار في مسألة الولاء الى الماضي. فتاريخ الحرب الاهلية (الفتنة) والكتابة التاريخية عنها يتضمن امران مختلفان اختلافاً واسعاً، كل منهما يستحق المناقشة والدراسة.

ـ ٢ ـ

يمكننا تصنيف وتحليل كل رواية تاريخية من وجهتي نظر رئيسيتين، اعتماداً على الكيفية في انها تعدّ مصدراً للمعرفة عن الموضوع تحت الوصف أو فيما اذا كانت اثراً

تاريخياً historiographic monument. والواضح ان هاتين القاعدتين او المبدأين في التصنيف ليسا منفصلتين او لا علاقة تبادلية بينهما وان تحولات او انتقالات انزلاقية او زاحفة sliding transitions يمكن وقوعها، غير ان التمييز بينهما ذا فائدة اساسية على اية حال. فمن الناحية التاريخية فان الاعتماد على عرض مصادره او على المظهر الخارجي للمؤلف سيؤديان دوراً حاسماً وبصورة ثابتة في وضعية ومكان الكتابة. في حين ان قيمة العرض مصدراً للبحث الحديث ليس له وثاقة الصلة بالنسبة الى الاستقصاء والتحقيق التاريخيين.. اذ يعدّ العرض اثراً تاريخياً. فان اهتمامنا سوف يركز على وضعه بمقتضى كونه دليلاً لقياس مستوى المؤرخين المتعاصرين ومنهجيتهم وايديولوجيتهم او مذهبهم. وليس بالاستطاعة تحقيق استقصاء هذه طبيعته بواسطة تجميع مصدري ببلوغرافي او عن طريق استعراض معلومات المؤرخ فحسب. ان التقويم ينبغي ان يفترض ان تدوين الروايات التاريخية يجب التعامل معها وكأنها نتاج المجتمع الذي انبثقت منه الروايات وفيها تفعل وظائفها ومهماتها[١].

ان الوظيفة الاجتماعية والتعليمية للكتابة التاريخية تعدّ ظاهرة معروفة جداً في اوربا في العصر الوسيط اذ ان خصائص عرضها بصورة رئيسة كنتاج لانتصار المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وحيث ما زالت الوجهات والمظاهر الثيولوجية اللاهوتية الملونة والمشوهة مع ذلك ظلت صامدة وذات اهمية[٢]. أما الفلسفة التي تشكل الاساس في عمل المؤرخين في العصور الوسطى فهي مستقاة من نظام سنت اوغسطين الثنائي الذي كان مطبقاً اولاً على المادة التاريخية الدنيوية وكذلك من اجل تحقيق اغراض جدلية من تلميذه بولس اوزوسيوس في الوقت الذي كانت فيه تواريخهم المرتبة زمنياً .وقد

---

(١) ينظر الافكار النظرية لهربرت بترفيلد Herbert Butterfield في بحثه (التاريخ وكتابة التاريخ) في المؤتمر الحادي عشر حول تاريخ العلوم (١٩٦٠) ص٢٥). وعرضياً فان مصطلح الـHistoriographs المستعمل في هذه الايام هو مصطلح متناقض بصورة كبيرة؛ انه يستعمل لكل من تاريخ الكتابة التاريخية وكذلك للبحث او للعرض الذي يتعامل مع التاريخ. ان التفسير او المعنى الثاني هو المعنى الاشتقاقي فإننا بقدر الامكان قد تجنباه في هذا الكتاب.

(٢) حول ذلك ينظر مثلاً اي، بيرنهايم Bernheim في مجلد٢ جزء٧ Historisk Tidsskrift (Copenhagen)) مجلد٥ ص٤٥٥.

استثمرت من قبل اوزسيوس .قد استندت على الجدول التاريخي ليوسوبيوس في رواية التوراة والرواية الكلاسيكية. ان محصلة هذه المبادئ قد انجزت بالتأكيد في بداية القرن السابع من ايسدور الاشبيلي Isidore of Seville. ومهما يكن فالغائية teleogical المميزة بأي حال لم تُحل دون ظهور هامش محدد او لم تمنع من ظهور الحد الأدنى المعين للاسهام الشخصي للمؤرخ.

فالروايات في العصور الوسطى تترك في الواقع انطباعاً أو صورة بواسطة التوليف والتوفيق أو بواسطة المباني بشأن مصدر المعلومات التي بحوزته، فالمؤرخ يستنبط تفسيراً خاصاً للماضي الذي يخدم ويفيد هدفه ووجهة نظره السياسية.

ان هذا التسلسل المترابط للرؤى والأفكار الواقعية السياسية وكذلك كتابة التاريخ ضمن الأطر المصطلحية الترمونولوجية والدينية. ليست هي، على أية حال، ظاهرة اوربية. فالمعالم البارزة تقع بشكل متطابق تماماً في الكتابة التاريخية الاسلامية القديمة، حتى وان كانت المفردات والمزايا تطرح بشكل أو قالب مختلف نوعما في الشرق حيث الباعث أو المحرك الديني يدخل في كل اعتبار أو في كل فعل سياسي .وفي كل أمر نظري .فهو مرتبط وشديد التعلق بسلسلة الأحداث المرتبطة بالإسلام، الدولة والدين، أما في الحديث فقد وجده على نحو مميز كتوأم (الدين والدولة. وليس من السهل ان ينسب هذا التشابه الوظيفي إلى أي تأثير كلاسيكي أو مسيحي)[1]. وهذا يرجع بشكل أساسي إلى حقيقة ان دعوة محمد قد بدأت في وسط ديني مماثل للوسط المسيحي وان آراءه قد شكلت أو نظمت الأسس الدينية للفهم العربي للتاريخ. ان الفهم العربي للتاريخ الذي كان يقوم بمهمته المؤرخ العربي في العصور الوسطى هو لذلك من طراز أو شكل اسلامي بشكل خاص، كما هو الحال تماماً في الفهم الاوربي الذي كان بالأساس مسيحيا، وان لكليهما موضعا ومكانة في النظم الغائية في

(١) من المحتمل- وعلى أية حال في تاريخ لاحق- ان المؤرخين المسلمين قد عرفوا عناصر أو مكونات الكتابة التاريخية الكلاسيكية عبر البيزنطيين أو النقلة السريان المسيحيين (ينظر شبولر، ص١٢٧) ويبدو ان اوروسيوس Orosius هو الوحيد من بين المصادر المسيحية الذي قد ترجم (ينظر Historisk Tidsskrift، كوبنهاكن، مجلد٢ جزء٥ ص٤٥٦.

العصور الوسطى.

فالمجتمعات العربية الشمالية في فترة قبل الإسلام تمتلك في الواقع رواية تاريخية لابأس بها وكانت تتعامل بشكل أساسي مع النسب القبلي ومع الأعمال الحربية التي كانت مولعة بها (رواية أيام العرب)[١]. وليس هنالك من شك بأن هذه الرواية تخدم وتفيد الأمور العملية القبلية وفيما يتعلق أيضاً بنفوذها واحترامها لاعمالها العسكرية العظيمة، نجد ان هذه الرواية لم تطور ابداً أي مفاهيم معبرة للأفكار المبتكرة الكاملة والثابتة عن الماضي، ولذلك السبب فقط فإنها قد حددت مدى الفهم لمثل هذه الحوافز والدوافع كالذي وصل إليه المؤرخون المسلمون المتأخرين. حقيقة ان البلاط الاموي قد حافظ على الاهتمام في ماضي قبل الإسلام (الجاهلية)، والانشغال الكامل في نشاطات الرسول العسكرية (أدب المغازي)، والفتوح الاسلامية، فالنزاعات الأولى لابد إنها أيضاً كانت متأثرة باسلوب رواية أيام العرب[٢]. غير ان اهتمام البدو في الرخاء والنجاح القبلي خالٍ تماماً من الدافع الديني الموحد المتأصل في التعاليم المحمدية وكذلك في أول نظام للامبراطورية العربية الخاضع للاشراف وللرعاية الاسلامية. وان المفاهيم التاريخية لم تتبلور ولم تندمج في النماذج أو المعايير العملية التي كانت تحكم المجتمع الجديد بطريقة لكي تمارس تأثيراً حاسماً على الاجيال القادمة. ونظرياً فإن التحقيق الموضوعي للحقائق ليس مهماً بالنسبة للنبي، غير إنها قد دخلت عنصراً لايتجزأ وأساسي في دعوته، على الرغم من التخفيف والتكييف في مناقشاته التي تأثرت بالظروف والاحوال الخارجية.

وهناك أهمية اعظم وأسمى وهي ان محمداً نفسه قد عبّر عن فكرة التواصل

---

(١) ينظر كاسكل، أم بسلر Plesser مادة (تاريخ) في دائرة المعارف الاسلامية (الملحق) ص ٢٣٠؛ او برمان ص ٢٣٩-٢٦٤ ايضاً بحثه Aijam Al-Arab المنشور في Islamica المجلد). III١٩٣٠)جزء ٥ (١٩٣٠).

(٢) ينظر عن ذلك، روزنثال: تاريخ علم التاريخ عن المسلمين (ليدن ١٩٥٢) ص٢٢-٢٨؛ اوبرمان: ص٢٦٤-٢٨٠؛ مجلد٢ جزء٥ (كوبنهاكن) Hidtorisk Tidsskrift]وقد ترجم كتاب روزنثال إلى العربيةص٤٥١ بعنوان (علم التاريخ عند المسلمين) تعريب د. صالح احمد العلي (بغداد ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) [المترجم].

والاستمرارية التاريخية بشكل قوي ومقنع، وكان هذا مبدأ اساسياً في عقيدته في الوحي وذلك ان الوحي الذي كان يتلقاه لم يكن من الناحية الجوهرية يختلف عن تلك التي كانت الشعوب الأخرى تتلقاها، غير إنه كان هو نفسه يحقق الرواية النبوية تلك التي قد ابتدأها رسل العهد القديم والمسيح[١]. واللافت للنظر كثيراً بالنسبة إلى تحديد هوية جميع أنواع الوحي أو الالهامات بأنها تفسر كيفية تراكم التجربة التاريخية ـ تحذيرات الاسلاف، ودروس التاريخ (العبرة) ـ بغية ان يوجد مثل هذا الثقل المميز في دعوته الخاصة[٢]. ان معرفته عن الماضي وفحواه ومفاده تعد عنصراً لايتجزأ عن الوحي بشكل متساو ومتماثل مع أي جزء آخر من ناموس الوحي الالهي[٣]، فهذه الاستمرارية التاريخية الدقيقة وكذلك توكيد العبرة من الماضي التي يفترض التسليم بها جدلاً ينبغي أيضاً قد أثرت على الايديولوجية والمفهومية داخل البنية الاجتماعية الجديدة.

كانت دعوة محمد فردية منذ البداية، وهو خط لو إنه قاد إلى خاتمة منطقية فإنه سيهدم البنية القبلية الجماعية الموجودة. كانت النزاعات وانقطاع العلاقات الودية مع المكيين، وقبل هجرة الرسول أيضاً، قد احدثت تأسيساً اسلامياً للمؤسسات، حيث اعطيت لها فهماً كاملاً في النظام الاجتماعي النظري للمدينة. ونتيجة لذلك فإن تعاليمه قد اتخذت عناصر جلية وواضحة لمبدأ الجماعية Collectivism؛ فتلك التعاليم قد خضعت لنوع من عملية تعريب arabizing، ومرة أخرى فأنها قد أكرهت محمد ان

(١) وهكذا تمثل في القرآن سورة ٤٢ آية ١١ [في آية من سورة الشورى قال تعالى (فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) آية ١١] [المترجم].

(٢) نفس المصدر سورة ١٢ آية ١١١. وبالنسبة إلى معنى مفهوم العبرة وتطورها ينظر مهدي ص٦٣؛ ابوت Abbott ص٦ مع هامش رقم ١٢ وصفحة ٧ وهامش رقم ١. دراسات في الأدب العربي في اوراق البردي نصوص تاريخية (نشر في اصدارات المعهد الشرقي/ شيكاغو ١٩٥٧ رقم ٧٥).

(٣) ينظر على سبيل المثال القرآن الكريم سورة ١١ آية ٥١ [قال الله تعالى في آية في سورة هود (ياقوم لا اسئلكم عليه اجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون)، اية ٥١ [المترجم].

سورة يوسف آية ١١١ (قصص عبرة) قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) [المترجم].

يكون اقرب بالنسبة الى الاعراف والأنماط السلوكية القبلية. وكانت نبوته العالمية قد تأكدت، مع ان حذر العرب وتراكم العبر التاريخية في مسألة جوهر الأشياء في العالم الخارجي برزت بوضوح أكثر من السابق. وخلال فترة وجوده في المدينة كان عليه ان يستنبط فارقاً واضح المعالم بين عبادة الاوثان والإسلام، وبين الجاهلية (الوحشية) والحلم (الرحمة والرأفة clemency) كما انعكست وظهرت في اتجاهين متناقضين للحياة التي تميزت و انفصلت بظهوره.

ان مفهوم التاريخ الذي شكّل جزءاً من تعاليم محمد قد دافع، كما هو الحال في مذهب وتعاليم اوغسطين، على ان العملية التاريخية هي إدراك أو تحقيق للمبادئ السرمدية والعالمية، وتجسد ارادة الله .(إنه طريق الله، اليك وهو فعلا كذلك، وان طريق الله لايتغير ابداً)*، كما تضمنه هذا المقطع من القرآن. والمجتمع الاسلامي هو أمة الله، اتباع الله وشيعته، وان قدرته على الخلق لم تتوقف إنما تظهر نفسها في جميع فعالياته. ومن اللافت للاهتمام ان الصلاح أو المنفعة في نجاحاتهم وفي تفسير ارادة الله كالتي ظهرت في سلسلة الأحداث ليست على هذا الأساس إنها مجرد مسألة تقوى أو طاعة إنما ببساطة هي ضرورة لاولئك الذين يستسلمون أو يخضعون أنفسهم إلى الله. بهذا المسلك كان ارتباط النظام أو الوضع الاجتماعي المحمدي بالدولة والدين قد اعطت للرواية التاريخية وظيفة مهمة من البداية تماماً. وهو اتجاه من الطبيعي قد حظي بالرعاية والدعم من الفتنة الدينية بالانقسام والانشقاق السياسي الذي بدأ بموت عثمان. فإن الفتنة مع ذلك قد كانت موجودة، ومع ان ذلك من الناحية المثالية يتعارض مع المبادئ الأساسية للإسلام وهي حقيقة قد استحقت منذ المرحلة المبكرة جداً عناية المؤمنين وما تمليه عليهم ضمائرهم وتطلبتها اعمالهم والتزاماتهم الشخصية. وأن أي نزاع سياسي أو مادي لابد ان يتخذ بما له علاقة بطبيعة الأشياء، مظهراً أو وجها دينيا

* وهذه ترجمة لاتتطابق تماماً مع نص الآية الكريمة في سورة فاطر (آية ٤٣) إذ يقول عز من قائل (استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولايحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الاولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا) فالسنت تحولت إلى path بقوله This is the path of God. [المترجم].

www.ketab.ir

بالاساس، وان أي رأي يعد مقوما شرعيا للمجتمع الاسلامي وإنه في جوهره بالذات هو جزء مؤهل ومخول لتلك الشرعية الاسلامية والذي يمكن الحصول عليه فقط عبر استحضار حديث النبي أو رؤى الاجيال الرواد. والمؤشرات الفارقة السياسية السابقة الذكر قد ادلي بها في الجدال حول المسائل المتعلقة بالأحداث الجارية المثيرة للجدل والخلاف. وان النزاعات بصورة عامة. لا مناص منها وان طبيعتها وسجيتها بالذات الفعلية هي التي تحول دون الولاء للماضي.

هذه الوضعية الخاصة للكتابة التاريخية العربية داخل المجتمع الاسلامي قد افادت في شرح وتفسير سماتها الخارجية. ان كراهية العرب للانحراف عن المرجعية أو المصدرية الموثوقة المؤسسة تقليدياً بمبادرته الخاصة (رأي opinio) أو من أي بدعة (Innovaion) ترتبط ارتباطاً وثيقاً، لايمكن فصله، مع رأيه الأساسي لمفهوم العلم والمعرفة. فالعرب لايقصدون بصورة عامة بالمعرفة، العلم، وبخاصة ما له علاقة بالأمور الدينية بأنه نتيجة من نتائج التفكير العقلاني المستقل ولكنهم يقصدون به مجرد الامكانية في ذكر بعض الثقاة المؤهلين ـ الأمر القرآني وحديث الرسول والسنّة (ممارسات الصحابة)* ـ وذلك من أجل توكيده واصراره بجميع أنواع الشكليات المتعارفة والمطلوبة، واقصد بها سلسلة من الاسانيد الموثوقة التي تعدد حلقات الربط والوسطاء حيث مرّت الرواية قبل وصولها إلى الراوية. يقول مؤلف الرجال محمد بن

* إشارة المؤلف إلى السنّة على إنها ممارسات أو تطبيقات الصحابة، فلابد من القول إنه: حقيقة ان أكثر المحدثين من يقول بترادف السنة والحديث فلا يجعلوا السنة تعني ما اثر عن النبي(ص) من قول أو فعل أو تقرير، وتجعل الحديث سنة قولية فقط. وان الله تعالى قد أشار في محكم كتابه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) سورة الحشر آية٧. فطاعة النبي وعدم عصيانه هو سنته التي جاء بها. وقد نظر العلماء إلى ان العمل بالسنة هو عمل بالقرآن. والسنة تثبت احكاما لم يعرض لها القرآن الكريم بنفي ولا اثبات. فما تثبته السنة يكون اصله في القرآن الكريم. فهي بذلك المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن. فهي أما مفسرة لمجملات القرآن أو مستقلة في التشريع بما ليس في القرآن الكريم. ويؤكد الحافظ الحازمي ان السنة مبينة للكتاب ومفسرة له وهو أمر مجمع عليه. والسنّة قاضية على الكتاب وليس العكس بمعنى تفسر الكتاب. والقرآن الكريم احوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن لذلك لاينسخ السنة إلا سنة ولاينسخ القرآن إلا القرآن [ينظر الحازمي؛ بحمد بن موسى: الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار (تحقيق محمد احمد عبد العزيز/ مصر ص٥٢)]المترجم.

www.ketab.ir

عبد الرحمن السخاوي «ليس هناك شعب (باستثناء العرب) منذ خلق آدم له رجال ثقاة يحرسون ويصونون كلمات النبي» ويقول «ودون الاسناد فإن أي شخص بوسعه ان يقول ما يحلو له. والمرء الذي يدرس حقائق دينية دون (ان يستعمل) الاسناد يكون كالذي يتسلق سقفاً دون استعمال سلم»[١]

اوما ينطبق أستعمل في هذا وفي غيره من القرائن في تفسير القرآن وفي فلسفة الشريعة أو القانون ينطبق ويستعمل أيضاً من حيث المبدأ في النقل التاريخي، ان مسيرة التاريخ تظهر في الواقع ازادة الله وهكذا تبقى مستقلة موضوعياً عن المراقب. فالراوية بمجاراته المضامين الكلاسيكية لرواية عالم، هو الذي يسلم العلم الذي في حوزته لا غير. وتعدّ هذه المفاهيم الأساسية ظاهرة قد بدأت تتأصل أو تترسخ في اسلوب وتقنية الرواية إذ ان المدونين للتاريخ ومنذ نهاية القرن الثامن عملوا بنجاح كما هو الحال من اسلوب الحديث الأخرى. وتماثلاً مع ذلك فإن علم الأخبار[٢] (وهو معرفة الأحداث أو الوقائع الجديرة بالاهتمام).

عموماً لايعبر باختصار عن نتائج دراسة المصادر أو يدل على بحث مبني على الملاحظة والاختبار إنما هو مجرد القدرة على ذكر الرواة الموثوقين .وهم المؤرخون المميزون والمعروفون وفي فترة متأخرة قليلاً عرفوا بشهود العيان الذين يشيرون إلى اسناد بهدف اقناع متطلبات شكلية بالشكل الذي يحق لها ان تكون.

إذن فإن الأمر متأصل في التدوين العربي للتاريخ وهو صلته بالمصدر وليس بالباحث. (فالبحث ليس وراء الوثائق وليس وراء الآثار من قبل المؤرخين التي هي من حيث المبدأ ما يبحث عنه المؤرخون العرب الاوائل)[٣]. ان مواد كهذه لاتعطي أفضلية

---

(١) مرغليوث، د. س: في كتاب العالم الاسلامي / [١٩١٢] ص ١٢٠؛ ينظر أيضاً جولد تسيهر في بحثه بالالمانية عن الإسلام Goldziher: Islam fordom och nu. Sludieri (Korantolkningens historia ١٩١٥)

(٢) حول هذا المفهوم ينظر روزنثال: علم التاريخ ص ١٠، ٥٩.

(٣) مرغليوث: محاضرات عن المؤرخين العرب (كلكتا ١٩٣٠) ص ٣٠]المترجم[وقد ترجم الكتاب إلى العربية الدكتور حسين نصار بعنوان (دراسات عن المؤرخين العرب، بيروت/ دار الثقافة)، روزنثال: علم التاريخ ص ١٠٥. ان الدراسات الاثرية الخالصة ربما أحياناً تتضمن آثار ونقوش. ينظر HT مجلد ٢ جزء ٥ هامش ٢.

وأولوية منهجية، وهي حقيقة بالكاد تعزى إلى قصور في المؤهلات الدراماتيكية (أي التعبيرية بطريقة مسرحية)، إنما بالأحرى تعزى إلى فشل تلك المواد في الايفاء مباشرة بشروط لمثل هذه المهمة أو لمثل هذا العنصر الأساسي كالذي يحتاجه المؤرخ من موضوع بحثه. مثل هذه الرسائل والأدب والخطب كالتي يستشهد بها هي دون شك وفي أغلب الحالات تعتمد قصة أو رواية قد تم تبنيها لأنها معبرة عن فهم المؤرخ الخاص لخصائص اولمزايا الماضي[١].

ليس بمقدور المؤرخ العربي ان يميز نقدياً بما يتعلق بمسألة عصر الرواية وطبيعتها. على الرغم من ان الرواية، كما هو الحال في التشريع، في الفترة العباسية المبكرة تنزع إلى تفضيل الدليل والبينة .وهي هنا تعتبر تفهم روايات (الاسناد) ومنه يمكن الرجوع إلى الوراء حيث شاهد العيان المعاصر .وهذه العملية بقيت ثانوية وافتراضية وزائفة[٢]، ولعله من المفترض إنها تعكس أو تظهر الصفة الدينية لمفهوم المعرفة، والحاجة إلى الحصول على مثل هذا العلم كما يمكن تقديمه للمراقب. وكانت الحاجات والمطلوبيات الشكلية أو الاصطلاحية تبنى على نحو لايمكن انكاره، على المظهر الخارجي للنقل التاريخي، مع ان هذه المادة لم تتعرض إلى مثل هذا النقد المتشدد للرواية كما كان من حيث المبدأ قد استخدم في التشريع والمسائل العقيدية في القرن التاسع. حتى وان كان بالنسبة إلى ثقاة مدققين من أمثال سفيان الثوري (متوفى ١٦١هـ/١٦٢هـ/ ٧٧٧/ ٧٧٨م) واحمد بن حنبل (المتوفي ٢٤١هـ/ ٨٥٥م). إذ اعتبرا ضبط المسائل وصحتها على نحو مطلق فإنه ملزم فقط حينما تتعلق الحالة بالخطأ

---

(١) ان الحالة المشار إليها هنا هو المسعودي مروج جزء٥ ص٣٩٣ وهي رواية لاتشابه جميع الروايات الأولى في ان الحكمين في أذرح قد دونا وثيقة للمفاوضات.

[ذكر المسعودي الوثيقة التي دونت في أذرح قائلا ((وكان فيما كتب في الصحيفة ان يحيي الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، ولايتبعان الهوى ولا يداهنان في شيء من ذلك فإن فعلا فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء)). والواقع ان عدداً من المؤرخين قد شدّدوا على الوثيقة التي كتبت بين الحكمين، وان نصر بن مزاحم كان مفصلاً لبنود هذه الوثيقة (ينظر المسعودي/ مروج/ دار الاندلس جزء٢ ص٣٩٢) [المترجم].

(٢)ينظر ص١٣٦-١٣٧(من الكتاب المترجم).

والصحيح، في حين في المسائل الأخرى، وبضمنها تدوين التاريخ، فلم يطالبا نفس ذلك الحذر والمبالاة[١].

وعلى الرغم من ان النقد المنهجي والشكي Scepticism لم يتبعا إلا في النادر، وان الاحترام للنقل قد تأسس نظرياً، فإن المؤرخ العربي قد نزع إلى اتخاذ موقف أكثر تحرراً بالنسبة إلى مادة مصادره عما قام به مؤلفو الشريعة والتفاسير. فالراوية لم يتخلى مطلقا عن حقه بالالتزام الديني أو السياسي للموضوع الذي يتعامل معه.

ومنذ وقت مبكر جداً ـ الانتقال من القرن السابع إلى الثامن ـ نحن نعلم برواة (مفردها راوي) اشخاص قد نقلوا أو حملوا شفويا اخبارا فردية (بما فيها روايات النسب والاخبار والأيام) وليس بالزمن المتأخر جداً فإنهم نقلوا كتبا (مفردها كتاب) ومدونات تتعامل مع الاخبار على شكل رسائل حول حقول مفردة، وقد أصبحت ظاهرة بارزة وماثلة[٢]. وان فهرست العناوين في أدب الفهارس ـ اخبار صفين، كتاب النهروان، كتاب كربلاء... إلخ ـ تزودنا بأدلة تفصيلية وان الرسالة المكتوبة أو الكتيبات هي الصيغة العادية والطبيعية للتعبير منذ اواسط القرن الثامن، حتى وان كان النقل مع ذلك متأثراً بالكلام المملّى، ومتوقف على اجازة أو تفويض من الشيخ لتلميذه في نقل مادة روايته (اجازة)[٣]. كان المتقدمون يحتفظون بمخطوطات أو أجزاء من

(١) شبرنجر: أي جول نقل الرواية العربية (بالالمانية) Sprenger, A: Uber des Tradition swesen bel den Araben في مجلة ZDA مجلد ١٠ (١٨٥٦) ص١٦؛ ينظر روزنثال ص٥٦؛ وبحثه الآخر الموسوم The technique and Approach of Muslim Scholarship المنشور في Annalecta Orientalia مجلد ٢٤ (روما) ١٩٤٩ ص٤١.

(٢) الدوري، مدرسة العراق التاريخية حتى القرن التاسع، في كتاب مؤرخو الشرق الاوسط بالانجليزية حققها برنارد لويس وهولت (لندن ١٩٦٤) ص٤٦- ٥٣.

الدوري، مدرسة العراق. البحث الذي تضمنه كتاب (مؤرخو الشرق الاوسط) بالانجليزية، تحقيق برنارد لويس وبي. أم. هولت. ويذكر البروفسور الدوري ان التدوين التاريخي الاسلامي قد بدأ بعد ظهور الإسلام. وان بدايات الدراسات التاريخية قد اتبعت بصورة عامة خطين اولهما خط الحديث وثانيهما الخط القبلي. وبينما كانت المدينة هي معنية بالحديث بالمقام الاول، كانت الكوفة والبصرة مراكز الروايات القبلية [ينظر Historians of the M.E. ص٤] المترجم.

(٣) روزنثال: علم التاريخ ص٦١؛ وبحثه الآخر العلماء المسلمون ص٧، آبوت Abbott المصدر السابق ص٢٢؛ ينظر Pedersen في بحثه باللغة الدانماركية الروايات القبلية [ينظر Historians، ص٤.

المخطوطات ذات طبيعة تاريخية ترجع في الواقع إلى الفترة العباسية الأولى[1]، وإنها تؤيد الحقيقة بأن مثل هذه المؤلفات لمؤرخي القرن التاسع الميلادي كالتي هي معروفة لنا كثيراً ما تستشهد وتستحضر الروايات من القرن الثامن بصيغة :دون أي اسناد متصل . تثبت بأنه لابد إنها كانت معروفة واستثمرت هذه المؤلفات المكتوبة. يحتفظ النقل العربي بكتب بصيغة رسائل عن الأحداث المفردة وبقيت مدة طويلة جداً. وحتى عندما شهدها وأدركها القرن التاسع والعاشر وهي تستبدل بتواريخ منظمة حسب السنوات فإن ذلك النقل لم يتخلى أو يتنكر لصفته وخصوصيته بالنسبة الى ثقافة الحديث ودراسته. ويظهر ان هذا التطور يرجع إلى عملية جمع وتصنيف متقدمة في القرن التاسع، وان هذه العملية دون شك قد دعمت واسندت بنمو وتطور صناعة الورق، التي وفرت مواد كتابية رخيصة ويسرت تعدد النسخ من الكتاب. وعلى أية حال، فإن هذه العمليات المادية لم تغير من الميزة الخاصة للرواية، كذلك لم تعق أو تحول دون التعديلات والتكييفات التي تعرضت لها الرواية في هذا الموضوع بالذات ad hoc وفي أي مرحلة من المراحل.

- ٣ -

لقد ترك وضع التدوين التاريخي في المجتمع الاسلامي كما هو الحال في امكاناته هامشا واسعا للعرض المتحيز لنزعة أو هدف معين. وفي هذا المجال فإن خلافة علي المحتومة والمفجعة واندلاع الفتنة قد ميزت مفارق طرق خطيرة في الكتابة التاريخية، وكذلك وبصرف النظر عن الحقيقة البينة بأن المعرفة الواقعية للنزاعات سرعان ما تتبدى وتخبو. وان أكثر الفرق المهمة في الإسلام إنما تنشأ وتنجم بطريقة أو بأخرى من أحداث تلك السنين، وهي على الرغم من جميع مواقفها المختلفة اختلافاً عرضياً، لاجوهرياً فإنها تعدّ من الناحية النظرية نقطة انطلاق. وان العوامل الحقيقة في النزاعات

(١) ابوت Abbott، المصدر السابق، الرسائل الأولى المعروفة من هذا النوع هي رسالة نصر بن مزاحم (المتوفى ٨٢٨م) واقعة صفين، ومحمد بن عثمان الكلبي (اخبار صفين) وهي الرسالة التي لم تطبع بعد (ينظر GAL (الملحق) ص٢١٢) وترجع إلى القرن التاسع الميلادي.

www.ketab.ir

قد انبثقت ونشأت من مقتل عثمان كانت بوضوح عوامل عرضية بالنسبة إلى الموقف المباشر وإنها بالكاد يمكن ان يثير أي اهتمام في الكتابة التاريخية، وبالأخص ليس بعد سقوط الخلافة الاموية. ومع ذلك فإن هناك امكانية استمراريتها في اعقاب الجدال التاريخي حول خلافة علي خلال الفترة العباسية في شدتها وعنفها المتزايد، وكما نعلم ان هناك تفاوتاً واضحاً بين معرفتنا لهذه السنوات وبين الاهتمام والعناية التي منحها المدونون التاريخيون المسلمون عنها[1].

ومهما يكن. فإنه وبعد مرور مدة طويلة تأسست وتثبتت شخصية علي الاسطورية Legendary Ali*، فالرواية العربية .وبالأخص الشيعية، التي تعمل بها، لايجمعها شيء مشترك بحياة علي الواقعية. فلم يكن علي ولا أحد من سلالته قد ميّز نفسه بمثل هذه الحصافة السياسية تجعلهم مؤهلين لأن يشغلوا أو يحتلوا مركز القيادة في الإسلام وهو المركز الذي يعتبره الشيعة مؤهلين** له[1]. وجميع البحث المتوفر هو المباشر أو غير

(١) وحتى في الوقت الراهن فإن خطوط التميز هذه تقسم البحث التاريخي العربي. ينظر ان. أي. فارس: تطور الكتابة التاريخية العربية كما انعكست في الصراع بين علي ومعاوية.]والملاحظ ان الأستاذ الدوري في بحثه عن المدرسة العراقية قد وقف على ان الاخباريين والمؤرخين الرواد في الخط القبلي. وإلى تطور الرواية التاريخية بما له علاقة بمفهوم الأمة والدولة [ينظر مؤرخو الشرق الاوسط ص٤٨- ٥٠]]المترجم[.

* لا نعلم ما المقصود بالاسطورية، أأن المستشرق يهدف إلى ما قيل في شجاعة الإمام(ع) أم في تبحره في الدين والافتاء والقضاء. وقد وقفت على هذه المسألة تاريخياً في المقدمة، ولكن هناك إشارة واحدة وردت عند المدائني برواية جويرية بن اسماء المتوفى ١٧٣هـ/٧٨٩ البصري الذي كان هواه مع الامويين ومفادها ان معاوية سأل شداد ين أوس عن الأفضل معاوية أم علي، فأجاب «علي أقدم اسلاماً وهجرة، واكرم بيتا وعترة، وأقدم لنبي الله نصرة، واشدّ إلى الخير سبقاً، واشجع نفساً واسلم قلباً» فهل ان قول جويرية هذا يعدّ في نظر الأستاذ بيترسن اسطورة أي خيالاً؟

ينظر البلاذري: انساب الاشراف (تحقيق د. سهيل زكار / طبعة أولى/ بيروت ١٩٩٦) جزء٥ ص١٠٦- ١٠٧ [المترجم].

** لا ريب إنه حكم لايستند على مصدر ولايعكس موضوعية في البحث العلمي ففي مقولة للإمام في ردّ له على سؤال «اللهم إنك تعلم أني لم أرد الإمرة ولا علوّ الملك والرياسة وإنما اردت القيام بحدودك والاداء لشرعك ووضع الأمور في مواضعها وتوفير الحقوق على أهلها والمضيّ على منهاج نبيك وارشاد الضالّ إلى انوار هدايتك» نهج البلاغة/ شرح ابن أبي الحديد مجلد٤ جزء٢٠ ص٥٥١. وهي مقولة تنطبق في كل زمان ومكان فإن كان ولي الأمر، خليفة أو ملكاً أو رئيساً أو غيره، يسلك في دولته مسلك الخير واتباع الدين القويم يراه الآخر المحب للدنيا بأنه غير مؤهل، ولي تعليق آخر ذكرته في المقدمة حول هذه المسألة [المترجم].

المباشر، ان هو إلا ثمرة عمل نقدي ريادي غير مشوش في الحقب الأولى من هذا القرن، قد تحقق باصدار تاريخ الطبري (المتوفي ٩٢٣م) خلال سنوات ١٨٧٩ . ١٩٠١. وباستقصاء فلها وزن المفصل بدأ العمل الجديد في دراسة الخلافة في العصور الأولى والفترة الاموية[٢]. وحوالي في نفس الوقت سنة ١٨٩٨ فإن ثيودور نولدكه قد صاغ موجزاً للصراعات الدينية والسياسية الشيعية والمؤيدة للعباسيين متمثلة في بناء رواية حول علي[٣]. وسرعان ما أصبح العلماء مطلعين على المواقف السياسية في الفترة العباسية ولعله قد أثر على المدونين التاريخيين في تبديل مواقفهم ووجهاتهم تجاه التاريخ المبكر للإسلام[٤]. ونفس المعرفة والإدراك قد شهدته فيه الدراسات النقدية الواسعة عن الفرقية للمستشرق البلجيكي المزاجي أو الحساس هنري لاماتس Lammens وموقفه الواضح في الكثير من الحالات حول اعادة الاعتبار والتقدير للامويين. فقد انجز عمله بطريقة أخّاذة وفي كثير من الأحيان بوعي لايخطئ بشأن الرواية الخاصة أو الفرقة السياسية، مع التوكيد بصورة خاصة على المظاهر والوجهات الدينية والشخصية للأحداث . على الرغم من إنه لم يستعجل مناهج نظامية في معالجة موضوع بحثه[٥]. وان جميع المعلومات الشاملة والضخمة عن تاريخ الإسلام المبكر ـ

---

(١) ينظر بشكل خاص F. Buhl، في بحثه بالالمانية Aliderne stilling til shitisk bavaegelser المنشور في مجلة Umjaderne OVSF ١٩١٠ رقم٥ ص٣٥٥.

(٢) فلهاوزن (Prolegomena١٨٩٩) بالالمانية Zur alesten Geschichtc des islams وكذلك كتابه الآخر (Skizzen und Vorarbeiten VI (Bin ١٨٩٩) Die religios-politische Oppositions parteien in alten islam (١٩٠١) وكتابه الثالث Das Arabische Reich und sein sturz (١٩٠٢) وطبعة انجليزية (London ١٩٢٧)

(٣) نولدكه Th.Noeldeke Zur tendentiosen Gest atlung der Urgeschichte Islam ١٨٩٨).

(٤) هكذا كان W. Sarasin في كتابه (بالالمانية) Das Bild Alis bei den Historiken der Sunna Diss-Basel ١٩٠٧ الذي أيضاً يشدد على النشأة الاسطورية بأنها سمة ثانوية، في حين ان تاريخه أو توقيته الأخير لصياغتها أقل اقناعا. ينظر فريدلاندر Friedlaender دراسته بالالمانية Muhammedanische Geschichiskonstruktionen (١٩١١) وهي في الأصل محاضرة قدمها سنة ١٩٠٢ وهي كأعماله الأخرى Helerodoxies b Saba يتعامل مع اسطورة علي.

(٥) ينظر س. أ. ج. بيكر Becker بحثه بالالمانية Principielles zu Lammens Sira studen في

المطبوعة منها وغير المطبوعة. قد رتبت أخيراً ونظمت منهجياً من قبل ليون كايتاني Leone Caetani، الذي زوّدها بتعقيبات نقدية كثيرة جداً وفي الكثير من الحالات قد زوّدها بتحليلات ذكية عن الاتجاهات السياسية للمصادر[١].

لذلك فإن صدور مؤلف الطبري قد ساعد العلماء ليس في تخلص الرواية العراقية - التي يعتمد عليها - في الكثير من التعديلات والتكييفات المتأخرة والثانوية، ولكن أيضاً قد احرزت على تبصر في ورشة عمل المدونين التاريخيين في عهد العباسيين والحصول على انطباع مؤقت بعدم الوثوق بهذه الرواية المتأخرة. وعلى أية حال، فإنه حتى في امكانية اعادة بناء الرواية العراقية - كما قام بها فلهاوزن - فقد اخفقت في التخلص من جميع المشاكل والمصاعب المتعلقة بالمصادر، وذلك لأن هذا النقل يمثل جانباً واحداً ليس إلا مقارنة بالمصادر الثانوية[٢]. وحتى صدور كتاب أنساب الاشراف للبلاذري، وهو يشابه كتاب الطبري ونشأ في أواخر القرن التاسع، قد قدم لنا التصحيحات الضرورية أو اللازمة للنقل العراقي بما يتعلق الأمر بما تحتويه من أجزاء أو شظايا كثيرة للرواية المبكرة المؤيدة للامويين عن الأحداث ذاتها. فالمعرفة المبكرة لهذه المعلومات لاتزود فقط ولا توفر فقط وسائل أفضل عن تحديد أو تقرير مدى المصداقية في الرواية المبكرة ولكن أيضاً في متابعة وتفسير أصل ونشأة الرواية التاريخية بشكل وافٍ وبكل معنى الكلمة. ان معرفة الروايات لكل من الروايتين أو النسختين المعدلتين من الروايتين عن خلافة علي ونهايتها اللاحقة في الفترة العباسية مكنتنا من تعيين أو تثبيت الظروف التي تشكلت فيها الكتابة التاريخية العربية وإلى أي مدى قد تأثرت بالتطور السياسي والديني الاسلامي، إلى ان أدت دورها ونشاطها الكامل في نهاية القرن التاسع الميلادي. وينبغي ان نشدد، على أية حال، بأن هذه الدراسة ليست مسألة شكيّة ومتطرفة لاغير وتتعلق بالرواية العربية، إنما بالأساس هي

مجلة Islam جزء٤/ ١٩١٣ ص٢٦٣- ٢٦٩ وان أكثر الأعمال أهمية للامانس في هذا المجال كتبه: معاوية (١٩٠٨) ويزيد (١٩٢١) والامويون (١٩٣٠)

(١) كيتاني Annali dell Islam مجلد ١-١٠ (١٩٠٥-١٩٢٦).

(٢) ينظر (Acta Orientalia (AO مجلد٢٣ ص١٦٣.

بالأحرى استعمال وتطبيق هذه المادة من المناهج النقدية التاريخية الحديثة[١].

فالرواية عن خلافة علي، خصوصا بما له علاقة مع معاوية، تقدم مدى للفهم أو مجالا أو مسوغا للدراسات عن السمات الأساسية لنشأة وتطور تسجيل الأحداث التاريخية العربية. والموضوع أولاً وقبل كل شيء ذا أهمية أساسية وحيوية بالنسبة إلى التطور الديني والسياسي الداخلي وذلك لسبب مهم هو إنها تتزامن وتتوافق مع بداية مراحل الفتنة، ولأنها ربما تسببت واحدثت مناقشات نظرية تتوقف عليها أهلية، الامويين والعباسيين أو العلويين .للخلافة. وهي على خلاف، مثلا، الوصف عن اسهام عمر في تنظيم الامبراطورية سياسيا في سنوات الفتوح المتعلقة بالأحداث الجارية فإنها لم تتأثر بالمناقشات والجدالات عن أصل الجهاز الاداري والمالي، ولا عن حقوق الشعوب الخاضعة أو المستعبدة والذين اعتنقوا الإسلام من غير العرب، ولاتتعلق بأي مظهر من مظاهر السياسة الخارجية مطلقاً. واجمالاً، إذن، فإن جميع الظروف التي تؤشر إلى استنتاج تطور رواية علي لعلها تقدم أو تعرض توضيحاً أو شرحاً وافياً ونموذجياً عن مظهر مهم لأصل الكتابة التاريخية العربية.

(١) قدم كتاب البلاذري W. اهلوردتAhlwardt في القسم الخامس عن خلافة عبد الملك بحثه بالالمانية (تاريخ عربي مجهول المؤلف) ليبرج ١٨٨٣ (anonyme arabische chronik) ومختصر مسح دي غويه على محتوياته في بحثه في مجلة ZDMG جزء١٨٨٤/٣٨ بعد ذلك فإن عدداً من اقسامه قد ظهرت في ترجمة (كيتاني، ديللافيدا وبنتو Pinto) غير ان الطبعة الكاملة قد اخذتها الجامعة العبرية على عاتقها، برئاسة اس. دي. كويتاين التي لم تزل غير منتهية. [يقصد بيترسن حتى سنة ١٩٦٤] المترجم.

www.ketab.ir